الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد الصديق بن يحيى – جيجل–
كلية الآداب واللغات قسم اللغة والأدب العربي

عنوان المذكرة

صورة الأنا وتجليات الآخر في رواية كراف الخطايا لعيسى لحيلح جزء 1 نموذجا

مذكرة مكملة لمتطلبات نيل شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي

– تخصص: نقد عربي معاصر

إعداد الطالبتين:

- سميحة بوشطوط
- فتيحة بوريطة

إشراف الأستاذ:

- عبدالحق مجيطنة

1– الأستاذة: جميلة بورحلة..... رئيسا.

2– الأستاذ: عبد الحق مجيطنة..... مشرفا ومقررا.

3–الأستاذة: كريمة بوخاري..... عضوا مناقشا

السنة الجامعية 2015/2014م /1436/1435 هـ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

مقدمة :

إن النص الأدبي ليس مجرد سطور خاوية داخل حيز زماني أو مكاني، بل هو تعبير عن تجربة شعورية ذاتية، وتأخذ "الأنا" موقعها المحوري في النص، من حيث أنها تدير تجربة المبدع بمعناها الواسع من خلال تعاملها مع الفن ممثلة لحياة الذات، إضافة إلى "الأنا "نجد عنصر "الآخر" يشكل طرفا مقابلا لها ليشكلا معا معادلة محورية تنسج أحداث النص الأدبي، هذه المعادلة التي هي واحدة من نواميس هذا الكون، وبالتالي هي إحدى نواميس النص الأدبي عامة والرواية خاصة.

"الأنا "و"الآخر"، أو"الأنا" و"النحن"، أو "النحن و"هم" هي ثنائيات شتى لثنائية واحدة تأخذ أشكالا متعددة بألوان مختلفة، تتجدد كل مَرَّة وفي مجالات عديدة، فقد أخذت نصيبها من علم النفس وعلم الاجتماع وحتى الفلسفة أيضا، كونها تعتبر مفتاحا أساسيا لفتح باب الذات ومعرفتها من خلال هذا الآخر، ولقد كان اشتغال الباحثين على هذه الثنائية بعيدا كل البعد عن الأدب، ولكن مع التطور الذي حققته الدراسات الأدبية والنقدية، فإن ثنائية "الأنا "و "الآخر" عرفت طريقها الواسع إلى هذا العالم، حيث أصبحت مجالا مهما للدراسة في الأعمال الأدبية، من قصص وروايات وقصائد وغيرها، ولهذا ستكون هذه الثنائية عنوان البحث في رواية (كراف الخطايا).

فكيف تجسدت "الأنا "و "الآخر" في الرواية؟.

و ما طبيعة العلاقة بينهما؟.

وللإجابة عن هذه التساؤلات قدَّم البحث خطة تتضمن فصلين، أما الفصل الأول فهو نظري محض، عالج فيه مفهوم "الأنا" بصفة عامة، ثم عند علماء النفس والاجتماع والفلاسفة بصفة خاصة، وبعدها عمد إلى تحديد مفهوم الآخر ثم أخيرا تطرَّق إلى طبيعة العلاقة بين كلا الطرفين، في حين كان الفصل الثاني تطبيقيا عمليا تحليليا، إذ قام بتحليل الرواية واستنباط جدلية "الأنا "و "الآخر" منها.

ولا يمكن إنكار أن هذا الموضوع قد تطرق إليه باحثون سابقون، من مثل عبد الله بوقرن في أطروحة دكتوراه الموسومة بـ (الآخر في جدليةالتاريخ عند هيغل)، وكذلك مي عودة أحمد ياسين في رسالة الماجستير الموسومة بـ

(الآخر في الشعر الجاهلي)، وغيرها من الدراسات المختلفة والمتنوعة والتي كانت تدور حول مدونات شعرية ونثرية، إلا أن الجديد الذي أضافه البحث إلى تلك الدراسات السابقة هو تناوله لقضية ا"لأنا" و"الآخر" في المتن الروائي الجزائري المعاصر (رواية كراف الخطايا ج1).

ولقد كان المنهج الذي استخدمه في الدراسة هو المنهج الوصفي التحليلي، كونه يتلاءم وطبيعة الموضوع المدروس، بحيث كان الوصف في أثناء جمعه للمعلومات وتنسيقها وأخذ منها مايفيد الدراسة، في حين كان التحليل لما قام باستخراج الثنائية وتحديد مواقعها المختلفة، كما استعان كذلك بالمنهج النفسي والاجتماعي تماشيا مع مضمون الرواية.

أما هدف الدراسة فهو إثراء المكتبة الجزائرية عامة والجيجلية خاصة بدراسة نقدية أكاديمية جزائرية، إضافة إلى مايكتسبه الموضوع من متعة خاصة وإثارة تجذبان كل باحث.

وتكمن أهمية الموضوع في كونه يستشف بعمق أهمية "الأنا" في الرواية، لأن هذه الأخيرة مرآة عاكسة للذات.

ولقد اعتمد البحث على مجموعة من المصادر والمراجع أهمها:

رواية (كراف الخطايا) لعبد الله عيسى لحيلح وهي موضوع الدراسة، وكتاب (هوية الأنا والتمرد النفسي لدى المراهقين) لصاحبه علي سلمان حسين العبادي، وتكمن أهمية هذا الأخير في تحديد النظرة النفسية الاجتماعية لـ"الأنا"، إضافة إلى (مسارات النقد ومدارات ما بعد الحداثة في ترويض النص وتقويض الخطاب) لحفناوي رشيد بعلي، و(دليل الناقد الأدبي) لمؤلفيه الرويلي ميجان وسعد البازغي،اللذان اعتمد عليهما في تحديد مفهوم "الآخر"،وكما اعتمد أيضا على كتاب (صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه) للطاهر لبيب في الوقوف على طبيعة العلاقة بين "الأنا" و"الآخر".

ولقد كان ضيق الوقت أول عائق واجهه البحث في دراسته، إضافة إلى الخلط في استعمال المصطلحات للتعبير عن "الأنا"وهذا راجع لتشعب المصطلح،زيادة على ذلك صعوبة التحليل.

وفي الأخير يُرجى أن يكون البحث مصباحا ينير درب كل من يهتدي به.

الفصل الأول: في مفهوم الأنا والآخر

تمهيد

أولا: في مفهوم الأنا

ثانيا: في مفهوم الآخر

ثالثا: طبيعة العلاقة بين الأنا والآخر

خلاصة

تمهيد:

لم يَعرف الإنسان الذات كما عرَفها في الوقت الحاضر، من حيث كونها مصطلحا نفسيا في دلالته، فلا توجد لغة في العالم سواء كانت قديمة أم حديثة وعلى اختلاف الحضارات، إلا واستخدمت ألفاظا مثل "أنا" ونفسي وغيرها، ولذا فإن جذورها قديمة جدا، فالذات الإنسانية بكيانها الشعوري والحسي تمثل أساس الكينونة الفعلية لذاتها لأنها تمتلك الكيفيات وتنفّذ الأفعال.

والوعي بالذات هو وعي بكينونة "الأنا"، لأنها في معظم مواقعها تتمحور حول نفسها، كما أنها مركز شخصيتنا، فلا تنمو ولا تفصح عن قدراتها إلا في إطار البيئة الاجتماعية، والذات ليست مجرّد هيكل بقدر ما هي كيان مركّب ومعقّد، يتراوح بين الكيان النفسي والعقلي والاجتماعي، ويتجلى هذا الكيان من خلال التفاعل والتواصل،« فالذات هي جوهر وحجر الزاوية في الشخصية، إذ تسعى لتحقيق تكامل واتساق الشخصية، لكي يتجلّى الفرد بصورة مكتفية مع الواقع الذي يعيش فيه، وتجعله بهيئة متفرّدة »[1].

إذن فالذات الإنسانية هي جانب من الشخصية يتكون بالتدرج، من خلال اتصال الإنسان بعالمه الخارجي والواقعي.

(1)أحمد الظاهر قحطان، مفهوم الذات بين النظرية والتطبيق، دار وائل للنشر والتوزيع، عمان، ط2، 2010، ص7

أولا: في مفهوم الأنا

- **مفاهيم عامة حول الأنا:**

"الأنا": مصطلح من بين المصطلحات الشائعة في الحياة اليومية وكذا العملية، والتي لا غنى للإنسان عنها، وذلك لأهميتها ولكونها تعبّر عن أغراض مختلفة، و"الأنا" هي كلمة قصيرة ذات أبعاد وخلفيات كثيرة فلسفية ونفسية واجتماعية وغيرها، فهي رغم بساطتها معقّدة ومتشابكة، ولهذا سيحاول البحث اليوم حل هذا التعقيد بالوقوف على هذا المصطلح في بيان معناه وماهيته، نقول:

"أنا":« هي ما يصلح لأن يعلم ويخبر عنه، وذات الشيء نفسه وعينه وجوهره »[1] .كما يمكن أن نقول أن "الأنا" « هو الذات التي تميز الفرد عن غيره، والتي يتكون منها الجوهر المتكامل للشخصية »[2] ، أي أن الإنسان يستخدم هذه الكلمة للإشارة إلى نفسه هو دون غيره من الناس، والتي تحدد شخصيته، وغالبا ما نجد أن لفظة "الأنا" تطلق « على الذات المفكرة العارفة لنفسها في مقابل الموضوعات التي تتميز عنها، فهي الوعي الذي تملكه الذات عن فرديتها المميزة عن الأشياء الخارجية المادية »[3] ، والمقصود من لفظة الذات هنا « هو الصورة العقلية التي يشكلها الفرد حول نفسه، فهو ينجح في دراسته كما في الحياة العامة إذا امتلك مفهوما قويا وايجابيا للذات»[4] .

و"الأنا" تتنوع بحسب الموقع الذي تأخذه في الوجود، إذ أنها ليست "أنا" فقط لها "آخر"، بل هي متغيرة في كل مرة، فالفرد داخل الجماعة الواحدة سواء كانت قبيلة أم طائفة أم جماعة مدنية، هو هوية متميزة ومستقلة، إنه "أنا" لها "آخر" داخل الجماعة نفسها، "أنا" تضع نفسها في مركز الدائرة عندما تكون في مواجهة مع "الآخر"، وكذلك الأمر بالنسبة للجماعات داخل الأمّة، فهي أفراد داخل الجماعة، لكل منها ما يميزها داخل الهوية الثقافية المشتركة، ولكل منها "أنا" و"آخر" خاص بها، من خلاله تتعرف على نفسها بوصفها ليست إياه، والشيء نفسه يقال بالنسبة للأمة الواحدة إزاء الأمم الأخرى، غير أنها أكثر تجريدا وأوسع نطاقا، وأكثر قابلية للتعدد والتنوع

(1) حسين مجيد العبيدي، من الآخر ...إلى الذات، دراسات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة والفكر العربي المعاصر، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2008، ص5.

(2) أحمد سعد جلال، الاختبارات والمقاييس النفسية، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية، القاهرة، مصر، ط1، 2008، ص143.

(3) حسين مجيد العبيدي، من الآخر ...إلى الذات، مرجع سبق ذكره، ص5.

(4) أحسن بوبا زين، سيكولوجية الطفل والمراهق، دار المعرفة، باب الوادي، الجزائر، دط، 2009، ص88.

والاختلاف، فكل هوية تحيل في نفس الوقت إلى ذاتها في مواجهة مع هذا "الآخر"[1] ، ف"الأنا" إذن تكون هوية شخصية، كما قد تكون هوية جماعية وهكذا، إذ تظهر كل مرة في ثوب جديد حسب "الآخر" الذي يقف في مواجهتها.

إن العلاقة بين هذه المستويات الثلاثة التي ذكرناها « تتحدد أساسا بنوع الآخر بموقعه وطموحاته، فإن كان داخليا ويقع في دائرة الجماعة، فالهوية الشخصية هي التي تفرض نفسها كأنا وإن كان يقع في دائرة الأمة فالهوية الجمعية "القبيلة، الطائفية، القومية الخ" هي التي تحل محل الأنا الفردي، أما إن كان الآخر خارجيا أي يقع خارج الأمة" الدولة، الوطن" فإن الهوية القومية هي التي تملأ مجال الأنا »[2] .

كما جاءت لفظة "الأنا" واضحة وجلية في القرآن الكريم، إذ نجد آيات كثيرة فيه قد صَرَّحت بها بشكل مباشر، إمّا على لسان القائل عزّ وجلّ وإمّا على لسان أحد الأنبياء سلام الله عليهم، وإمّا على لسان الطغاة في الأرض، فلكل موقعها في القرآن الكريم. يقول سبحانه وتعالى: ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيكَ إِنَّكَ بِالوَادِ المُقَدَّسِ طُوَى﴾ طه 12، وهيّ آية كريمة يخاطب فيها سبحانه وتعالى نبيّه الكريم موسى –عليه السلام– مشيرا إلى ذاته الإلهيّة ﴿أَنَا رَبكَ﴾ ثمّ يوّاصل في آية أخرى في نفس السورة قائلا : ﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ طه 14.

فالمولى عزّ وجلّ يصف هذه الذّات الإلهيّة العظيمة والّتي لا مثيل لها في الوجود، فلا ذات كذاته﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَد﴾ الإخلاص 4، هو الواحد الأحد، وله الأعمال والنيات، والصلوات والدعوات.

وغالبا ما تأتي لفظة الأنا بصيغة الجمع في القرآن الكريم وذلك تعظيما وإجلالا للقائل عز وجل، كما نلاحظ ذلك في قوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَى وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون﴾ الحجر 9.

وقد تكون هذه اللفظة غير صريحة، لكنّنا نكتشفها من خلال سِيّاق الكلام مثل قوله سبحانه وتعالى:

(1) حاتم الو رفلي، بول ريكور...الهوية والسرد، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، دط، 2009، ص38.
(2) المرجع نفسه، ص39.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَة مِنْ طِين، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ فِي قَرَار مَكِين﴾ المؤمنون 12-13.

و لقد كثُر استخدام كلمة "الأنا" في الشِّعر العربي خاصة منه في الشِّعر الجاهلي، إذ أننا لا نكاد نسمع بيتا أو قصيدة إلا ورنَّت هذه اللفظة في آذاننا وملأت أسماعنا، لكن هذا مما لا حرج فيه إذ أن الإنسان يمتلك قدرا كبيرا من الأثَرة والأنانية، يحب نفسه ويَعتدُّ بفرديته، ويميل إلى تغليب مصالحه الخاصة على مصالح الآخرين، يريد أن يفخر بنفسه ويُكثر من الحديث عن مكانته، مرددا دائما "أنا" آلاف المرات دون كلل أو ملل، يحتاج إلى بث همه والتغني بأحزانه فيقول "أنا"، يُمجِّد نفسه معجبا فاخرا بها فيقول كذلك "أنا"، كما أنه يريد من الآخرين مشاركته كذلك وأن يسمعوه وهو ينشد أبياته[1]. يقول عنترة ابن شدّاد:

أنـــا المـــوت إلا أننـــي غيـــر صـــابر علـــى أنفـــس الأبطـــال والمـــوت يصـــبر

أنـا الأسـد الحـامي حمـى مـن يلـود بـي وفعلـي لـه وصـف إلـى الـدّهر يـذكر[2]

وفي قصيدة أخرى له جاء فيها:

إنـــي أنـــا ليـــث العـــرين ومـــن لـــه قلـــب الجبـــان محيّـــر مـــدهوش

إننـــي لأعجـــب كيـــف ينظـــر صـــورتي يـــوم القتـــال مبـــارز ويعـــيش[3]

وسيطرة الاتجاه القبلي والعصبية عرفا انتشارا واسعا لدى الجاهلية، خاصة الطوائف الغالبة منها، فكان كل شاعر يعتز بقبيلته متغنيا بقوتها وجبروتها، وسيادتها على القبائل العربية الأخرى، يقول عمرو بن كلثوم في معلقته الشهيرة:

وقـــد علـــم القبائـــل مـــن معـــدّ إذا قبـــب بأبطحهـــا بنينـــا

بأنّـــا المطعمـــون إذا قـــدرنا وأنّـــا المهلكـــون إذا ابتلينـــا

وأنّـــا المـــانعون إذا أردنـــا وأنّـــا النّـــازلون بحيـــث شـــينا

وأنّـــا التـــاركون إذا ســـخطنا وأنّـــا الآخـــذون إذا رضـــينا

(1) إخلاص فخري عمارة، الشعر الجاهلي بين القبلية والذاتية، مكتبة الآداب، القاهرة، ط2، 2001، ص208.

(2) شرح ديوان عنترة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، 1995، ص66.

(3) المرجع نفسه، ص77.

وأنّـــــا العاصـــــمون إذا أطعنـــــا   وأنّـــــا العـــــازمون إذا عصـــــينا

ونشـــرب إن وردنـــا المـــاء صـــفوا   ويشـــرب غيرنـــا كـــدرا وطينـــا

ألا أبلـــغ بنـــي الطّمـــاح عنّـــا   ودعميّـــا كيـــف وجـــدتمونا[1]

كان هذا في الجاهلية لكن « لما جاء الإسلام كان من جملة ما بدله من أحوالهم أنه جمع كلمتهم وصاروا يدا واحدة على اختلاف أنسابهم ومواطنهم، وبعد أن كان اليمني يفاخر الحجازي، والمضري يفاخر الحميري ونحو ذلك من مفاخرات القبائل والبطون والأفخاذ، جاء الإسلام فجمعهم تحت راية واحدة باسم واحد وهو الإسلام فقال الرسول المسلمون إخوة »[2] ، فغابت عنهم تلك النظرة التقليدية لـ"الآخر"، وصار "الآخر" يحمل معنا جديدا بالنسبة لهم، فـ"الأنا" المسلمة في مواجهة مع "الآخر" غير المسلم، ولذلك فقد تغيرت ألوان قصائدهم وأغراضهم، وأصبحت تحمل أبعادا جديدة في ظل الدين الإسلامي، فالفخر والتغني لا يكون إلا بالفضائل والأخلاق الحميدة والانتساب إلى هذا الدين. يقول حسّان ابن ثابت في خطابه لـ"الآخر":

عـــدمنا خيلنـــا إن لـــم تروهـــا   تثيـــر النقـــع موعـــدها كـــداء

ينـــازعن الأعنـــة مصـــغيات   علـــى أكتافهـــا الأســـل الظمـــاء

تظـــل جيادنـــا متمطـــرات   تلطمهـــن بـــالخمر النســـاء

فإمـــا تعرضـــوا عنـــا اعتمرنـــا   وكـــان الفـــتح وانكشـــف الغطـــاء

وإلا فاصـــبروا الجـــلاد يـــوم   يعـــز الله فيـــه مـــن يشـــاء

لنـــا كـــل يـــوم مـــن معـــد   قتـــال أو ســـباب أو هجـــاء

فـــنحكم بـــالقوافي مـــن هجانـــا   ونضـــرب حـــين تخـــتلط الـــدماء

فهوية "الأنا" هي الهوية الدينية الإسلامية، التي تسعى جاهدة في الفتوحات إلى نشر هذا الدين المجيد، ومعظم القصائد التي شهدتها هذه الفترة، لا تكون إلا هكذا ممزوجة بلون الهوية الإسلامية.يقول الأسود بن قطبة:

دعيـــتم أننـــا لكـــم قطـــين   وقـــول الفخـــر يخلطـــه الفجـــور

جـــريتم لـــيس ذلكـــم كـــذاكم   ولكنـــا رحـــى بكـــم تـــدور

(1) ديوان عمرو بن كلثوم، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1996، ص69-70.

(2) زيدان جرجي ، تاريخ آداب اللغة العربية، ج1، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، دط، 1983، ص185.

ولـــو رامـــت جمـــوعكم بـــلادي إذا كـــرت رحانـــا تســـتدير
فللنـــا حـــركم بلـــوى قـــديس ولـــم تســـلم هنالـــك بهـــر ســـير
فتحـــت البهـــر ســـير بـــإذن ربـــي وأعـــدتني علـــى ذلـــك الأمـــور
وقـــد عظـــوا الشـــفاه ليهلكونـــا ودون القـــوم مهـــراء جـــرور
وطـــاروا قضـــة ولـــم زئيـــر إلـــى دار ولـــيس بهـــا نصـــير [1]

وكانت كل هذه القصائد وتلك تقال فخرا بالإسلام والمسلمين، وزجرا للكفر والكافرين، خاصة أثناء المعارك والغزوات التي شهدتها الفترة الإسلامية في أثناء الفتوحات.

في حين نجد الطابع يتغير في كل مرة، و"الأنا" تأخذ مواقع مختلفة في كل مرة أيضا، فساعة هنا، وأخرى هناك، وهكذا حتى تمتزج بألوان شتى، فنجدها الآن مثلا قد تلونت وتزينت بزينة المتصوفة، فـ"الأنا" هنا الآن هي "الأنا" المتصوفة التي ذابت عشقا في الذات الإلهية، لجلالتها وعظمتها، حتى انحلَّت فيها انحلالا، وهذا ما نجده متجسدا في قول الحلاج- أحد المتصوفة- « أنا الحق والحق أنا وما في الجبة إلا الله »[2] ، وكان ينشد هذين البيتين الشهيرين:

أنـــا مـــن أهـــوى ومـــن أهـــوى أنـــا نحـــن روحـــان حللنـــا بـــدنا
فـــإذا أبصـــرتني أبصـــرته وإذا أبصـــرته أبصـــرتنا[3]

فالحلاج جعل ذاته والذات الإلهية ذاتا واحدة، لفرط حبه له، وهو أمر شاع لدى المتصوّفة.

وهناك مظهر آخر من تمظهرات "الأنا"، أو هوية من بين الهويات التي تكتسيها "الأنا" كل مرة وهي الهوية الوطنية، والتي قامت بقيام الدولة الحديثة، فصار العالم عبارة عن أوطان منقسمة، لكل منها ثقافتها وعاداتها وتقاليدها الخاصة التي تميزها عن غيرها، فكل دولة أو وطن قد تبنىَّ أفكارا خاصة به، ومعتقدات يؤمن بها، وشكَّل

(1) يوسف عطا الطريفي، شعراء العرب عصر صدر الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص 77.
(2) أحمد بناسي، دراسات في الإسلام واللغة العربية، منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، الجزائر، دط، 2004، ص57.
(3) سعدي ضناوي، ديوان الحلاج، دار صادر، بيروت لبنان، ط2، 2008، ص65.

هويته مستقلة عن باقي الهويات الأخرى، يعتز بها ويفخر، فمثلا هوية الجزائري تختلف عن هوية "الآخر" التونسي، وهوية الليبي تختلف عن المصري وهكذا، وكل واحد يسعى دائما إلى إبراز هويته وجعلها الهوية المفضلة على "الآخر".يقول الشاعر:

أصـــل الحضـــارة فـــي صـــعيدك ثابـــت ونباتهـــا حســـن عليـــك مخلـــق

وُلِـــدت فكنـــت المهـــد،ثم ترعرعـــتْ فأظلهـــا منـــك الحفـــي المشـــفق

مـــلأت ديـــارك حكمـــة مأثورهـــا فـــي الصـــخر والبـــردي الكـــريم منبَّـــق

وبنـــت بيـــوت العلـــم باذخـــة الـــذرى يســـعى لهـــن مغـــرِّب ومشـــرَّق[1]

فالشاعر هنا يفتخر بوطنه العزيز على قلبه، ويجعله جوهرة الشرق والغرب .

(1) أحمد شوقي، الشوقيات، شرح وضبط: صلاح الدين الهواري، ج1و2، دار ومكتبة الهلال، ط1 ، 2008، ص 286.

أ- الأنا في الفلسفة:

يراد به عند الفلاسفة العرب « الإشارة إلى النفس المدركة، أما في الفلسفة الحديثة فتشير كلمة "أنا" في معناها النفسي والأخلاقي إلى الشعور الفردي الواقعي وإلى ما يهتم به الفرد من أفعال معتادة ينسبها إلى نفسه الشخص المفكر »[1] .

أما عند الفلاسفة الغرب وبالضّبط عند "ديكارت" فإن "الأنا" أخذت معنا آخر، بحيث أنها صارت تُعبِّر عن الوعي وهو الجوهر الأساسي الثابت فيها، وهو الخاصية المميزة في "الأنا" المفكر، ف"أنا أشك" كما يقول "ديكارت"، ومادام الشك نوع من التفكير ف"أنا أفكر"، وإذا كنت أفكر ف"أنا موجود"، هكذا صاغ "ديكارت" فلسفته التي أصبحت تعرف بالكوجيتو الديكارتي "أنا أفكر فأنا موجود".

وقد تساءل "ديكارت":

أيّ شيء أنا..؟.

وأجاب:

أنا شيء مفكر، ثم أعقب ذلك بالتساؤل:

ما الشيء المفكر ؟.

وأجاب: إنه شيء يشك ويفهم ويتصور ويثبت وينفي، فل"الأنا" المفكر خصائص مثل الشك والتصور والتخيل والإحساس، وهذه الخصائص لا تنفصل عنه، كما يتميز "الأنا" المفكر بالوحدة والثبات، فبالرغم من أنه تصدر عنه عدَّة أفعال، فإنه يظل هو هو وفي تطابق مع نفسه، وإذا كان "الأنا" يفكر فهو موجود، وهذا الوجود هو وجود يقيني لا يرقى إليه الشك، ف"أنا" موجود حتى في حالة النوم، وحتى في افتراض أن هناك قوة عليا تحاول أن تخدعني أو تضللني.

وبخلاف ذلك أكد الفيلسوف التجريبي "دافيد هيوم"(D.Hume) أنه لا يمكن لـ"الأنا" أن يعي ذاته أو

(1) المنجد في اللغة العربية المعاصرة، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط2، 2001، ص45.

يشعر بها من دون عملية حسية، وبزوال الإدراك الحسي يزول الوعي بالذات ولا يعود "الأنا" موجودا، فلا يمكن أن يحصل الوعي بالذات إلا من خلال الإدراك الحسي، بحيث يعتبر هذا الأخير شرطا أساسيا لوعي "الأنا" بذاته، وحيث أن الإدراك الحسي يزول بزوال الموت، فإنه يزول معه الوعي، فلا يعود "الأنا" موجودا، أي يغدوا عدما خالصا.

في حين يرى الفيلسوف الألماني "ايمانويل كانط"(E. Kant) أن الإنسان يتميز عن الحيوانات والأشياء بقدرته على تصور ذاته ووعيه بها، وهو ما يجعله كائنا حرا مسؤولا وذا كرامة لا تُقدَّر بثمن. ويرتبط الوعي بالذات لدى الإنسان بالنطق بلفظ "أنا"، أو على الأقل امتلاك تصور عنها، فلا يمكن الوعي بالذات إلا من خلال النطق بلفظ "أنا" أو على الأقل امتلاك مدلول عنها، فحينما يبدأ الطفل بالنطق بلفظ "أنا" فإنه ينتقل من الإحساس الحسي المباشر بذاته، ليرتقي إلى مستوى التفكير فيها والوعي بها، والوعي بالذات هو الذي يمنحها هويتها أي يكسبها وحدتها وتميزها عن باقي الأشياء والكائنات، كما يمنح الوعي للإنسان قيمة وكرامة لا تُقدَّر بثمن.

وقد عقد "كانط" مقارنة بين الإنسان من جهة والحيوان من جهة أخرى، وذلك لأجل تبيان وإثبات أن الإنسان متميز عنها بخصائص أساسية، تتمثل في الوعي والعقل والحرية والمسؤولية والكرامة، كما قدَّم لنا أمثلة ثلاث يتعلق أولهما بذلك الإنسان غير القادر على النطق بـ"الأنا" كالأبكم مثلا، لكنه رغم ذلك فهو يعي تماما ذاته وله القدرة على امتلاك تصور "الأنا"، مما يؤهله لأن يكون كائنا واعيا، أما المثال الثاني فهو متعلق باللغات التي تتمايز وتتباين فيما بينها، خاصة في الصيغ التعبيرية، فهي لا تملك كلها صيغة واحدة في التعبير عن ضمير المتكلم "أنا"، لكنها مع ذلك ذات مدلول له، فهي تحمل تصورا عنه، أما المثال الثالث فيتمثل في ذلك الطفل الذي لا يكون في بداية تعلمه للغة قادرا على الإشارة إلى نفسه بلفظ "أنا"، وحين يبدأ بالنطق فإنه ينتقل من مستوى الإحساس الحسي الغريزي إلى مستوى التفكير والوعي بالذات، فتتشكل له تدريجيا صورة واضحة عن أناه[1].

في حين ينحو "بول ريكور" منحا آخر، حيث يقول واصفا هذه "الأنا" « تتسم هوية كوجيتو "الهو-هو"

(1) محمد الشبة، موقع محمد الشبة لقضايا الدرس الفلسفي، الوعي والإدراك الحسي، 10:00، 2015/03/03 philochebba.com.

المتمركز حول نواة الأنا من خلال أفعال الشك والإدراك والإثبات والنفي والإرادة وعدم الإرادة والتخيل والإحساس باللاتاريخية، الأنا يقع في لجج التنوع، إنها هوية "الهو" الذي يفر من بدائل الديمومة والتغير في الزمن لأن هذا الكوجيتو لحظوي »[1] ، فـ"بول ريكور" يرى أن لـ"الأنا" ميزات خاصة أهمها التغير، فهي ليست ثابتة كما قلنا سابقا، بل تأخذ صورا مختلفة في اللحظة الواحدة، ثم يضيف قائلا أن هذه الصفات المميزة لـ"الأنا" هي التي تجعلنا نميز بين مكونات ثلاث للهوية هي « هوية مثل مجموع المكونات النفسية التي بها يتعرف الفرد على ذاته من خلال الزمن، الهوية الإنية هيئة الفرد وحضوره المعطى من خلال كلامه للآخرين، والهوية السردية قدرة سردية الفرد للتعبير عن الأحداث والوقائع المنسجمة لوجوده »[2] .

ب– الأنا في علم النفس:

تُعَدُّ مدرسة التحليل النفسي أهم مدرسة في علم النفس، لما حققته من نجاحات هائلة في سبر أغوار النفس الإنسانية، ويمثل "سيغموند فرويد" زعيم هذه المدرسة، ولقد أضاء بأبحاثه الكثيرة نفوسا أخذتها ظلمة نفسها بعيدا عن هذا العالم، ولقد ركَّز "فرويد" في أثناء دراسته على الشخصية، ومحاولة معرفة أحوالها الكامنة في الباطن، ولهذا فقد قسَّمها إلى قوى ثلاث مستخلصا في الأخير هوية "الأنا"، أو ما الذي تمثله "الأنا" في الشخصية ؟.

فذهب "فرويد" إلى أن « الأنا ego نظام يتكون من أفكار منطقية وإدراكات وخطط تمكنه من التعامل مع العالم الواقعي من جهة، وتمكنه من ضبط الطاقة الانفعالية من جهة أخرى »[3]، ومعظم الوظائف التي يقوم بها "الأنا" تتأدى بكل وعي وعقلانية، فهي « مركز الشعور والإدراك والحكم والتبصر في العواقب، المشرف على أفعالنا الإرادية، فهو الذي يحقق إشباع الدوافع أو لا يحققها، وهو الذي يبذل الجهود الواعية لحل الصراعات بين الكائن البشري والعالم الخارجي »[4]، رغم الضغوطات التي يمارسها "الهو" عليها « فالهو id أكثر قوى الشخصية بدائية وهمجية »[5]، لذلك فإنه ذا بأس شديد وقوى هائلة تخنق "الأنا" الواعية، محاولا الإيقاع بها في مطبَّات

(1) حاتم الورفلي، بول ريكور... الهوية والسرد، مرجع سبق ذكره، ص36.

(2) المرجع نفسه، ص36.

(3) محمد عودة الريماوي، علم نفس النمو– الطفولة والمراهقة، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، الأردن، ط1، 2003، ص62.

(4) خير الله عصار، مقدمة لعلم النفس الأدبي، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عنابة، الجزائر، ط1، 2008، ص67.

(5) جلال شمس الدين، علم اللغة النفسي، مناهجه ونظرياته وقضاياه، ج1، المناهج والنظريات، مؤسسة الثقافة الجامعية للطبع والنشر والتوزيع، د ط، د ت، ص52.

الهوى وشتى الغرائز الجنسية والعدوانية الكامنة داخل هذا "الهو" الذي يُمثِّل« جانب الشخصية قبل أن يتناوله المجتمع بالتحوير والتهذيب، فهو لا يعترف بالقيم وهو يبتغي الإرضاء الفوري بلا تأجيل لدوافعه وحاجاته »[1].

كما أن "الأنا" لا تسمح له بالتطاول أكثر عليها، لأنها تحت رقابة دائمة من طرف "الأنا الأعلى" super ego، فـ"الأنا الأعلى" كما يرى "فرويد" تبدأ في التكون في بواكير الطفولة، وذلك من خلال التعاليم التي يكتسبها الفرد من الوسط الذي يعيش فيه –العائلة والمجتمع– ومن الضوابط والمحرمات المسننة والتي لا يجدر التجاوز فيها، فهي بمثابة الخطوط الحمراء، والتي تَفرض على الطفل منذ الصغر ضبط ما بنفسه من الرغبات، وعندما يشبُّ يصير لديه علم بكل قوانين هذه "الأنا العليا"، وهنا تقف "الأنا" في لجج الاضطراب والصراع والهوة الكبيرة المتواجدة بين "الهو" و"الأنا الأعلى"، فتلجأ إلى استخدام العقل لتسوية هذا الصراع وعدم الإخلال بقوانين كلا الطرفين[2] ، لأن "الأنا" يصبح بمثابة الميزان الذي يحاول أن يبقي كفتيه متوازنتين.

« ويشبه فرويد الأنا بالعبد الذي عليه إرضاء ثلاثة أسياد، فالأنا لكي تسلك سلوكا ما عليها أن تراعي مطالب أسيادها، فإن كانت قوية نجحت وكان سلوكا سويا يدل على الصحة النفسية وإن كانت ضعيفة فشلت وظهرت أعراض الاضطراب النفسي أو العقلي » [3]، فـ"الأنا" دائمة السعي إلى التوجيه والتنظيم وتكييف الشخصية مع واقعها، والوصول بها إلى النجاح، بحيث أنها تقبل الواقع كما هو والواقع يقبلها، وهكذا يمكننا القول أن "الأنا" هي القوة العاقلة المفكرة التي تزن كل شيء بالعقل، وتقارن وتراقب وتحدد الأفعال والأقوال وتقرر السلوكات، كي يستطيع الكائن البشري العيش مع الآخرين بسلام، دون أن يعتل أو يكون عالة على المجتمع، بل يُستقبل هذا الفرد بصدر رحب داخل جغرافيته.

ت– الأنا في علم الاجتماع:

انتشرت في الحقول المعرفية والعلمية مصطلحات جديدة لم تكن متناولة من قبل، أو لم تكن ذات أهمية في الدراسة من قبل، ومن بين هذه المصطلحات التي وجدت مكانا في الدراسات العلمية مصطلح "الأنا"، التي

(1) جلال شمس الدين، علم اللغة النفسي، مناهجه ونظريته وقضاياه، مرجع سبق ذكره، ص52.

(2) المرجع نفسه، ص 52

(3) مروان أبو حويج وعصام الصفدي، المدخل إلى الصحة النفسية، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، الأردن، ط1، 2009، ص 54.

تعددت مفاهيمه حسب التخصصات والتوجهات الفكرية منها والعلمية، ونجد علماء الاجتماع من بين الذين اهتموا بـ"الأنا"، وتفانوا في تفسير وتحليل خباياها، على اعتبار أنها ظاهرة اجتماعية كباقي الظواهر في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية، ولقد أسهم كثير من العلماء في تأسيس النظرة الاجتماعية لهذا المصطلح، من خلال سن مفاهيم له كل حسب توجهه، وفي مقدمتهم بعض رواد المدرسة التفاعلية الرمزية منهم "تشارلز كولي هورتون" الذي اهتم بالتنشئة الاجتماعية للذات، بغية اكتشاف نمو الشخصية من خلال الجماعة، حيث يذهب إلى« أن الذات أو الأنا هي مركز شخصيتنا وأنها لا تنموا ولا تفصح على قدراتها إلا من خلال البيئة الاجتماعية، وأن الشعور بالأنا لدينا لا يبرز دون أن يكون مصحوبا بذوات الآخرين »[1]، فهو يؤكد على فكرة مهمة في نظرته للذات، وهي أن لا وجود للذات في الواقع دون المجتمع وتفاعلها معه، فهو أساس معرفة الذات لذاتها من خلال تأثرها بهذا المجتمع.

ف"كولي" قد اهتم« بالطبيعة الاجتماعية للذات، تلك الذات التي تعني عنده أي فكرة أو نسق من الأفكار ترتبط باتجاهات ملائمة نسميها الشعور بالذات »[2] ، ومن جهة أخرى يرى "كولي"« أن الذات تتأسس أو تبنى على الدافع المتعلق بالشعور بالذات »[3]، ومعنى هذا أن الذات عند "كولي" تنمو داخل سياق العلاقات الاجتماعية، من خلال تكثيف الخبرة الاجتماعية داخل الجماعات الأولية، والتي تكون دائمة في حياة الفرد، فالذات و"الآخر" لا يتحققان كوقائع منفصلة بل بالعكس، وهو أيضا صاحب مصطلح« الذات العاكسة الذي استعمله ليصف به كيف نكون انطباعا على أنفسنا من خلال الآخرين »[4] ، بمعنى أن الذات تعرف نفسها من خلال استجابات الآخرين لها والتأثير فيها والتأثر بها من جهة أخرى.

وقد عرض "كولي" فكرته الأساسية التي مؤداها« أن الذات في جوهرها اجتماعية في كتابه الطبيعة الإنسانية

(1) رشيد بعلي حفناوي، مسارات النقد ومدارات ما بعد الحداثة في ترويض النص وتقويض الخطاب، دروب للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2011، ص230.

(2) محمد فتحي فرج الزليتني، أساليب التنشئة الاجتماعية الأسرية ودوافع الانجاز الدراسية، دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، دط، 2008، ص101.

(3) المرجع نفسه، ص 101.

(4) مصطفى خلف عبد الجواد، قراءات معاصرة في نظرية علم الإجتماع، مطبوعات مركز البحوث والدراسات الإجتماعية، دط، دت، ص58.

والنظام الاجتماعي »[1]، ويتجلى من خلال أنه لا وجود للذات دون الجماعة، والفرد طبقا لهذا المنظور يرى ذاته من خلال الجماعة، فالجماعة هي مرآة الذات، بمعنى آخر أن الفرد يكتسب ذاته من خلال تبنيه وتقمصه اتجاهات الآخرين وتفاعله معها، وهنا تتحدد هويته وبالتالي تكون الذات اجتماعية، لأنها تبرز من خلال التفاعل مع أعضاء الجماعات[2] ، إذن المجتمع عند "كولي" يمثل مرآة الذات، وهو الذي يزود الفرد بالوسيلة التي تمكنه من ملاحظة رد فعل الآخرين اتجاه سلوكه الخاص، وبالتالي تَشكُّل الذات يكون ذا طابع اجتماعي لا فردي وأساسها المجتمع.

أما من منظور "ميد هربرت" فقد ساق في تحليله للتفاعل الرمزي كيفية نشأة الذات من الجانب الاجتماعي، حيث« قام بمعالجات موسعة لفكرة الذات الجماعية، وهو يرى أن الذات لأي فرد تتطور كنتيجة علاقة هذا الفرد بالعمليات والنشاطات والخبرات الاجتماعية من جهة، والأفراد من جهة أخرى »[3] ، كما أنه يصف مرحلتين عامتين في نمو الذات، وأن كل ذات تمر بها وهما كالتالي« مرحلة اللعب الفردي ومرحلة اللعب الجماعي، وقد أطلق ميد على الجماعة ككل مصطلح الآخر العام »[4] ، الذي يعتبره أساسيا في نشأة الذات، من خلال احتكاكها بالجماعة أو "الآخر" العام كما عبَّر عنه، ويرى أن الذات تصبح كاملة عندما يتعلم الفرد قواعد المجتمع، ومن جهة أخرى يقسِّم"ميد"« الذات إلى الفاعل (الأنا الداخلي) والمفعول (الأنا الخارجي) والأنا الفاعل هي الجزء الإيجابي من الذات، أما المفعول فهو الجزء السلبي أي هو الجزء الذي يؤثر فيه الآخرون» [5] .

(1) محمد فتحي فرج الزليتني، أساليب التنشئة الاجتماعية الأسرية ودوافع الانجاز الدراسية، مرجع سبق ذكره، ص101.

(2) المرجع السابق، ص 101-102.

(3) رشيد بعلي حفناوي، مسارات النقد ومدارات ما بعد الحداثة في ترويض النص وتقويض الخطاب، مرجع سبق ذكره، ص231.

(4) مصطفى خلف عبد الجواد، قراءات معاصرة في نظرية علم الاجتماع، مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، القاهرة، د ط، د ت، ص57.

(5) المرجع نفسه، ص58.

وهذا المخطط يوضح التفاعلية الرمزية عن التنشئة الاجتماعية لـ"الأنا" عند" ميد":

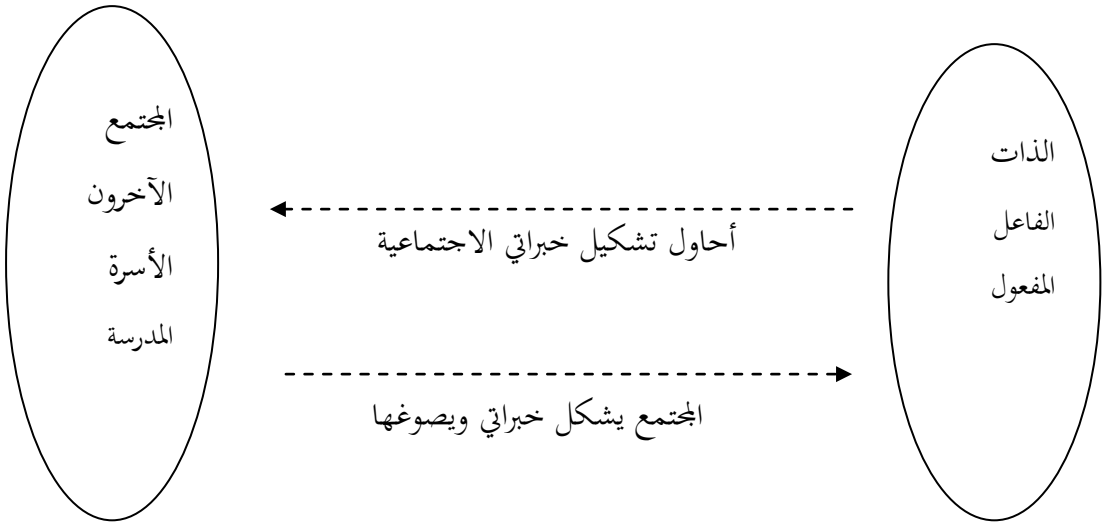

فهو يرى أن الفرد عندما يصبح واعيا بالجزء السلبي من ذاته –أي المفعول– يكون عندئذ قادرا على أن يؤثر في نفسه بالتّحكم فيها، وهنا يصبح الفرد عند "ميد" موضوعا لذاته، كما أن "ميد" أكد على أن "الأنا" يمكن أن تتحكم في الذات أو توجهها لا إلى الانصياع فحسب، بل إلى التصرف باستقلالية، وفي هذا يقول« الأنا تعطي الإحساس بالحرية والمبادأة » [1]، كما أنه تطرَّق إلى أن الذات الإنسانية ليست فطرية بقدر ما هي مكتسبة على مرِّ الوقت، من خلال قوله« بأن الإنسان حيث الولادة لا يأتي مزودا بالذات، إلا أنه يولد بطاقة فسيولوجية تحقق الذات عنده على مر الوقت » [2]، وبذلك تكون الذات عند "ميد" مكتسبة وليست فطرية، كنتاج عن التفاعل الذي يحصل بين الإنسان والمحيط الاجتماعي الذي يعيش فيه.

كما نجد من جهة أخرى العالمة الاجتماعية "ميد مرغريت" قد أسهمت بآرائها في تأسيس وسن مفهوم اجتماعي آخر لـ"الأنا"، بحيث تقول« بأن النفس عبارة عن شيء مدرك وترى أن الشخص يستجيب لنفسه لشعور معين ولاتجاهات معينة مثلما يستجيب الآخرون له، وترى أن الفرد لا يمتلك ذاتا واحدة تكون في كل الأحوال وإنما للفرد عدة ذوات بحسب الأدوار الاجتماعية » [3] ، فقد جعلت تشكُّل "الأنا" ونموها مرتبط بالدور

(1) مصطفى خلف عبد الجواد، قراءات معاصرة في نظرية علم الاجتماع، مرجع سبق ذكره، ص59.

(2) محمد فتحي فرج الزليتني، أساليب التنشئة الاجتماعية الأسرية ودوافع الانجاز الدراسية، مرجع سبق ذكره، ص103.

(3) عبد العزيز حنان، نمط التفكير وعلاقته بتقدير الذات، مذكرة لنيل شهادة ماجستير، قسم العلوم الاجتماعية، شعبة علم النفس، تخصص الإرشاد النفسي والتنمية البشرية، بشلاغم يحي، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، 2011-2012، ص11.

الذي تؤديه داخل الوسط الذي تعيش فيه، متأثرة به من جهة ومؤثرة فيه من جهة أخرى.

ولم تذهب "كاميليا عبد الفتاح "مذهبا آخر في تصورها لـ "الأنا"، بحيث أنها لم تر غير الذي رأوه كل أولئك العلماء، فمفهوم "الأنا" أو الذات عندها« هو المعنى المجرد لإدراكنا لأنفسنا جسميا وعقليا واجتماعيا في ضوء علاقتنا بالآخرين والذين يكونون بمثابة مرآة عاكسة لصورتنا »[1] ، "فكاميليا "جعلت تجسُّد "الأنا" في الواقع مرتبط بنظرة المجتمع لها ومدى تفاعله معها، وعليه فإن مفهوم الذات أو"الأنا" هو النواة التي تقوم عليها الشخصية وتَشكُّلِها، و« الذات الصحيحة والسليمة تكون في تماش مع الرغبات الأساسية والقيم الاجتماعية » [2] والتي يكون "الأنا" جزء منها، فلا يجب أن تكون هناك هُوَّةٌ بين إمكانيات القوة الفعلية للفرد وفكرته عن ذاته، وكلما كان هناك اتساق ما بين إدراك الفرد لأناه وإدراك الآخرين له، تكون لديه فكرة سليمة لذاته.

وتشمل هوية "الأنا" من وجهة نظر "مارشا" على مجالين لا يمكن أن نفصل بينهما لارتباطهما ببعضهما البعض، وهما هوية "الأنا" الإيديولوجية وهوية "الأنا" الاجتماعية:

وترتبط الهوية الاجتماعية بخيارات الفرد في مجال الأنشطة والعلاقات الاجتماعية، وتشمل أربعة أبعاد هي الصداقة والدور الجنسي والأسرة والعلاقات بالجنس الآخر، والمقصود بها تصور الفرد لذاته على وفق منظومة المجتمع والآخرين، وذلك من خلال علاقاته مع الآخرين داخل المحيط الاجتماعي، ويُعدُّ الدور الجنسي واحدا من أهم المؤثرات في تشكل هوية "الأنا" الاجتماعية، فمفهوم الذكورة والأنوثة يتعدى الاختلاط البيولوجي في المفهوم الثقافي في توقعات الدور، فنلاحظ الاختلافات بين الشعوب والثقافات في تحديد سلوكيات الدور، وما يتعلق به من تفاصيل كالملبس ونوع العمل، وسن الزواج، وتمثل العلاقة بين الجنسين بوصفهما مجالا مهما في تشكيل هوية "الأنا" مظهرا أساسيا في الحياة الاجتماعية، تتمركز حول مجموعة من الاتجاهات النفسية التي تعبِّر عن نفسها في صور مختلفة من السلوك والتفكير والنظم الاجتماعية، وتنظم المجتمعات الإنسانية المختلفة حتمية هذه العلاقة بطرق مختلفة تكون "الأنا" خاضعة لها.

أما هوية "الأنا" الإيديولوجية فإنها في ذاتها لها وجهان مكملان للآخر، الوجه الاجتماعي الناتج عن

(1) عبد العزيز حنان، نمط التفكير وعلاقته بتقدير الذات، مرجع سبق ذكره، ص12.

(2) علي سلمان حسين العبادي، هوية الأنا والتمرد النفسي لدى المراهقين، علم نفس الطفولة والمراهقة، المكتب الجامعي الحديث، د ط، 2013، ص27.

إيديولوجيات الأشخاص والمجتمعات تاريخيا، والوجه الذاتي الناتج عن العلاقة الجدلية بين الذات والآخرين، والذي يخول الفرد فيما بعد جدلية الانفصال أو الاندماج في الإيديولوجيات المنتشرة، وترتبط الهوية الإيديولوجية بخيارات الفرد في عديد من المجالات الحيوية المرتبطة بحياته، وتشمل على أربعة أبعاد فرعية أيضا، هي هوية "الأنا" الدينية والسياسية والمهنية، وأسلوب الحياة، ويُعدُّ المعتقد الديني واحدا من أهم المحركات الأساسية الضابطة للشخصية، وفي مرحلة المراهقة المتأخرة يتم النظر إلى الدين نظرة أكثر منطقية تناقش فيها الأفكار والمبادئ التي تلقَّاها الفرد من قبل، وعادة ما تكون هذه المعتقدات الدينية معبِّرة بشكل كبير عن البناء الإيديولوجي العام، المصاحب لتشكل هوية "الأنا"، وذلك من حيث دلالة عمق التأمل الفكري واتساعه في هذا الجانب،كما يُعدُّ الاختيار المهني واحدا من بين الأبعاد الرئيسية للهوية الإيديولوجية النامية نموا سليما، ولا شك أن لهذا الاختيار أهمية في حياة الفرد فهو وسيلة لخدمة الذات، وشعور الفرد أمام نفسه بأن له مكانته المميزة، إذ يمكِنه أن يقدِّم خدمة لنفسه ولمن حوله[1] .

وفي ظل تأملنا لتلك المفاهيم نجد أن الذات الإنسانية ذات طبيعة اجتماعية حيث أنها تبرز من خلال التفاعل مع المجتمع والتأثير فيه والتأثر به، باعتبار أن الإنسان كائن اجتماعي بطبعه، وهذا يتجلى من خلال سلوك الذات داخل المجتمع، وبالتالي فالذات مكتسبة وليست فطرية لأن الإنسان يولد صفحة بيضاء والمجتمع هو الذي يتكفل برسم ما يشاء من الخطوط عليها.

ث– الأنا في علم النفس الاجتماعي:

ويمثل هذا الجانب "إريك إريكسون "حيث تحدث عن هوية "الأنا" ego identity وعرَّفها بأنها« ذلك الشعور بالهوية الذي يهيئ القدرة على تجربة ذات المرء كشيء له استمرار يته وكونه هو هو، نفس الشيء ثم التصرف تبعا لذلك » [2]،كما نجد نظريات أخرى كذلك قد أشارت إلى هذا الجانب لكن دون تعمق، كنظرية الذات لـ"كارل روجرز" التي ترى« أن الذات هي المحور الأساسي والرئيسي التي تحدد شخصية الفرد، وفكرتنا عن ذاتنا هي التي تحدد نوع شخصيتنا، وهذه الذات عند "روجرز" تتكون من مجموعة منتظمة من الصفات

(1) علي سلمان حسين العبادي، هوية الأنا والتمرد النفسي لدى المراهقين، علم نفس الطفولة والمراهقة، مرجع سبق ذكره، ص46-49.
(2) محمد إبراهيم عيد، الهوية والقلق والإبداع، دار القاهرة، القاهرة، ط1، 2002، ص19.

والاتجاهات والقيم نتيجة تفاعل الكائن الحي مع البيئة، وخلال خبراته مع الأشياء والأشخاص وقيمهم التي يمكن أن يتمثلها في ذاته » [1]، إذ أن المجتمع يتحكم في نفسية الفرد وسلوكاته ليشكل عندئذ هذه "الأنا" أو الذات وفقا له.

فهذه النظرية لـ"روجرز" لا تكاد تختلف عن نظرية "إريكسون"، إلا أن نظرية هذا الأخير تعتبر امتدادا لنظرية التحليل النفسي لـ"فرويد" رغم ارتباطها-أي نظرية إريكسون- بالواقع، كما أنها اهتمت بكل مراحل النمو الإنساني من فترة الطفولة إلى مرحلة الكهولة، وقد ربط "إريكسون" نمو "الأنا" بنمو الهوية « واعتبر مرحلة المراهقة مرحلة أزمة الهوية crisis identity، ففيها تتقمم الصراعات وتبلغ حد الذروة، إما إلى تعيين الهوية حيث الثقة بالنفس وبالآخرين، والشعور بالاستقلال وبالمبادأة، وأن الحياة تستمد مقوماتها من الاجتهاد والمثابرة، وإما إلى عدم تعيين الهوية identity diffusion حيث فقدان الثقة والشعور بالخزي والخجل والشك » [2]. وتُعدُّ وجهة نظر "إريكسون" أكثر إنسانية من تلك التي تعود لـ"فرويد"، إذ يتعامل مع الجانب الذاتي للحياة فضلا عن تقدير الشخص لذاته وللآخرين، ويُقسِّم "إريك" دورة الحياة على ثمان مراحل، تبدأ المرحلة الأولى بظهور أزمة نفس اجتماعية، وتسعى فيها "الأنا" جاهدة لحل هذه الأزمة وكسب فاعليات جديدة، تزيدها قوة وتجعلها قادرة على مواجهة مصاعب الحياة، وتخطي المراحل التالية بكل ثقة وأمان، رغم ما يواجهه فيها من أزمات نمائية تتضمن كل أزمة صراعا بين بدائل ايجابية وأخرى غير صحية، وأن الطريقة التي يُحلُّ بها الفرد هذا الصراع ويجتاز بها الأزمات تؤثر حتما في رؤيته لنفسه وللآخرين فيما بعد. ويرى "إريكسون" أن هوية الفرد تتطور من خلال كل هذه الأزمات والتي تؤدي إلى نمو شخصيته أو نكوصها، ويرى أن المراهق يحقق الإحساس بالهوية عبر مراحل التطور النفسي الاجتماعي وهي مراحل متعاقبة ومتسلسلة، ولكل مرحلة أهدافها واهتماماتها ومهماتها ومخاطرها، إذ أن النجاح في إتمام مهام مرحلة نمائية، يعتمد إلى حد كبير على النجاح في اجتياز المهام النمائية التي تسبقها، وتشمل هذه المراحل مايلي:

- **المرحلة الأولى: الثقة مقابل عدم الثقة Truste VS. Mistrust:**

تمثل المرحلة الأولى المرحلة الأساسية في حياة الإنسان، والتي تمثل مرحلة الطفولة، فهي البذرة الأولى

(1) أحمد سعد جلال، الاختبارات والمقاييس النفسية، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية، القاهرة، مصر، ط1، 2008، ص 144.
(2) محمد إبراهيم عيد، الهوية والقلق والإبداع، مرجع سبق ذكره، ص19.

للإحساس بهوية "الأنا" ego identity، إذ تؤدي رعاية الأم لابنها واهتمامها به إلى الحل الناضج لأزمة هذه المرحلة، فيكتسب الطفل الثقة في أمه وبالتالي في ذاته ومحيطه مستقبلا، وعلى هذا الأساس تكسب "الأنا" قوة جديدة متمثلة في الأملHope، وعلى العكس من ذلك يؤدي إهمال الأم لابنها إلى إحساس الطفل بعدم الثقة Mistrust، مما يترتب عليه شعور بالإحباط، ليس في هذه المرحلة فقط بل طوال حياته، ذلك أن المراحل التالية تتأثر بهذا الحل وتترك بصماتها على شخصية الفرد في المستقبل.

- **المرحلة الثانية: الاستقلالية مقابل الخجل والشك**

:Autonomy VS. Shane and doubt

وتبدأ هذه المرحلة مع دخول الطفل عامه الثاني، نتيجة لنموه واكتسابه لقدرات بدنية تمكنه من البعد والاستقلال نسبيا عن أمه، ويرى "إريكسون" أن الحل الناضج للأزمة يعتمد على الحب والحنان اللذان تقدمانه الأم لابنها، فيكتسب الطفل مشاعر الاستقلالية، وكسب "الأنا" لفاعلية جديدة تتمثل في الإحساس بالإرادة Will، في حين يؤدي جفاء الأم وبرودتها اتجاه وليدها إلى الحل السلبي للأزمة، ويتمثل في عدم قدرة الطفل على تحقيق الاستقلال الذاتي والمعاناة من مشاعر الخجل والشك، وقد يحدث له نكوص للمراحل السابقة .

- **المرحلة الثالثة: المبادرة مقابل الشعور بالذنب Initative VS. guilt:**

عند دخول الطفل عامه الثالث تبدأ هذه المرحلة وتستمر كمحور للنمو خلال مرحلة الطفولة المبكرة، وترتبط بدرجة كبيرة بطبيعة تعامل الأسرة مع الطفل وطبيعة تشجيع مشاركته أو عدم تشجيعها، فضلا عن حل الأزمتين السابقتين، ويتمثل الحل الناضج للأزمة في قدرة الطفل على المبادرة لتحقيق طموحاته، وهو ما يؤدي إلى اكتساب "الأنا" قوة جديدة تعرف بالغرضية Purpose، أي أن الطفل يبدأ في تحديد أهدافه وغاياته لأجل تحقيقها[1].

- **المرحلة الرابعة: المثابرة مقابل الشعور بالنقص: IndustryVS.Inferiority:**

تتمثل أزمة هذه المرحلة مع دخول الطفل مرحلة الطفولة المتوسطة، ويرتبط حل الأزمة بالظروف البيئية المحيطة به، فيؤدي تشجيع البيئة للطفل وإحساسه بقدراته ومواهبه إلى شعور الطفل بالقدرة والمثابرة لتحقيق الانجاز، وخوضه في منافسات ايجابية مع أفراد المجتمع، وهذا يكسب "الأنا" فاعلية جديدة تتمثل في "أنا" سليمة وقادرة على حل أزمات النمو اللاحقة، وعلى العكس من ذلك يؤدي نفور المجتمع من الطفل وإشعاره بالعجز إلى بروز

(1) علي سلمان حسين العبادي، هوية الأنا والتمرد النفسي لدى المراهقين، علم نفس الطفولة والمراهقة، مرجع سبق ذكره، ص 37-39.

مشاعر النقص لديه، بدرجة يمكن أن تعيق نموه وتعرضه إلى مزيد من الاضطرابات النفسية.

- **المرحلة الخامسة: الهوية مقابل تشتت الهوية ego identity VS.Role Confusion:**

ويرى "إريكسون" أن مرحلة المراهقة من عمر 12 إلى 18 سنة لها أهمية خاصة، لأن مسألة الهوية الأساسية للفرد يجب أن تواجه في هذه المرحلة بالذات، لأنها مرحلة التفسير والتوحيد والاندماج، وفيها ينبغي على الفرد أن يكوّن صورة عن نفسه تكون ذات قيمة تزوده بالاستمرار مع الماضي، فضلا على توجهه نحو المستقبل ويَكون هناك تكامل بين أفكار الشخص وما يعتقده الآخرون عنه، وتُشكِّل صورة الشخص عن نفسه هويته، فينمو الفرد بعلاقات مع المجتمع الذي يعيش فيه، مؤديا أدواره الاجتماعية المتعددة والمختلفة بكل أريحية، في حين يساعده ذلك على الانتقال من هذه المرحلة إلى مرحلة بدرجة كبيرة من النضج، أما إذا كانت الأسرة قاهرة ومسيطرة ولا تسمح له بالتفاعل مع الجماعات الأخرى، فإن إحساسه بذاته سوف يضطرب ويعجز المراهق عن إيجاد الدور الملائم له، كما يعتقد "إريكسون" أن المراحل السابقة والنجاح فيها يساعده على تخطي هذه المرحلة وحل الأزمة، خاصة أنها تُعدُّ مرحلة التغيرات الجسمية والعقلية والنفسية .

- **المرحلة السادسة: الألفة مقابل الإحساس بالعزلةIntimacyVS.Isolation:**

ويتزامن ظهور هذه المرحلة مع بداية الشباب، حيث تبدأ الحاجة إلى وجود شريك، بحيث يدمج هويته مع هوية شخص آخر دون الخوف من فقدان "الأنا"، ويتمثل الحل الناضج لهذه المرحلة باكتساب "الأنا" فاعلية جديدة ممثلة في الحب، ويرتبط الحل بإحساس الفرد بمسؤولية تجاه الآخرين، إذ يميل إلى العطاء والتضحية لأجلهم خاصة إذا وجد منهم الحب والتقدير والاحترام، وعلى العكس من ذلك يؤدي الفشل في حل الأزمات السابقة والظروف غير المناسبة إلى الفشل في حل أزمة هذه المرحلة أيضا، فيعزل الفرد نفسه عن الآخرين متمركزا حول ذاته منكفئا عليها[1].

- **المرحلة السابعة: الإنتاجية مقابل الركود:Generatively VS. Stagnation:**

وتتمثل أزمة المرحلة في دخول الفرد مرحلة أواسط العمر، إذ يتميز الفرد بالإنتاجية والمسؤولية اتجاه الجيل القادم ومساعدته على الحياة بفاعلية وإبداعية، رغم أن ذلك يرتبط بحل الأزمات السابقة والظروف الاجتماعية

(1) علي سلمان حسين العبادي، هوية الأنا والتمرد النفسي لدى المراهقين، علم نفس الطفولة والمراهقة، مرجع سبق ذكره، ص39-41.

التي تحيط بالفرد، وفي حالة الحل الإيجابي للأزمة تكسب "الأنا" فاعلية جديدة تتمثل في الاهتمام ؛وتعني قدرة الفرد على إعطاء الرعاية والاهتمام للآخرين، لكن الحل السلبي للأزمة يؤدي إلى عجز الفرد على الإنتاجية والعطاء وتوجيه الجيل الجديد،مما يؤدي إلى الإحساس بالركود والسأم من الحياة.

- **المرحلة الثامنة: تكامل الأنا مقابل الشعور باليأس Integrity VS.Despair:**

يتزامن ظهور هذه الأزمة مع انتهاء مرحلة أواسط العمر، ودخول الفرد مرحلته الأخيرة من الحياة المتمثلة في الكهولة، وترتبط طبيعة النمو النفسي الاجتماعي وطبيعة حل الأزمات التي سبقت هذه الأزمة بحل أزمة هذه المرحلة، ويؤدي الحل الإيجابي للأزمة إلى إحساس الفرد بتكامل أناه مما يعني تقبله لدورة حياته وحياة الآخرين الذين تربطهم علاقة به، فتكسب "الأنا" فاعلية جديدة هي الحكمة التي تدل على خلاصة وحوصلة ما مر به من تجارب، وعلى العكس من ذلك يؤدي الحل السلبي للأزمة إلى إحساس الفرد باليأس والإحباط[1] .

(1) علي سلمان حسين العبادي، هوية الأنا والتمرد النفسي لدى المراهقين، علم نفس الطفولة والمراهقة، مرجع سبق ذكره، ص41-43.

ثانيا :في مفهوم الآخر

إذا كان الشخص يشير إلى الإنسان ككائن واع ومستقل، فهل فكرة استقلالية الشخص تعني أننا أمام فرد منعزل في أصله عن الغير مكتف بذاته؟ أم أن وجود الشخص ووعيه بذاته قائم على وجود الغير؟،كما أن البعض يعتبر الغير تهديد لـ"الأنا"، وبعضهم يعتبره شرطا لها، فمن يكون هذا "الآخر" يا ترى؟.

إذا نظرنا إلى تعريف"الآخر" في المعاجم اللغوية القديمة مثل (معجم لسان العرب لابن منظور) نجد أنه« يعني غير كقولك رجل آخر، وثوب آخر » [1].

أما المعاجم اللغوية المعاصرة فإنها عرَّفت "الآخر" على أنه« أحد الشخصين أو الشيئين ويكونان من جنس واحد، أو هو يدل على فرق، على تمييز بين شخص أو شيء مقصود وأشخاص أو أشياء من الفئة ذاتها والجنس نفسه" إنك تحب آخر". أي أن من تحب ليس بالشخص المقصود ذاته، بل غيره ثان » [2] .

ونجد العديد من المفكرين والفلاسفة تناولوا مصطلح "الآخر" أو الغير مؤسسين له من خلال وضع مفهوم له كل حسب رآه واتجاهه الفلسفي، فذهب"سارتر" إلى« كائن آخر مماثل للأنا لكنه مستقل في وجوده ومختلف عن الأنا والغير هو الأنا الذي ليس أنا » [3]، كما يعتبره« عاملا فاعلا في تكوين الذات إذ يرى سارتر أن وعي الذات الوجودي يتأسس تحت تحديق الآخر ولكن الآخر ليس آخر خيرا عنده، بل ينطوي على عداء يدمر إنسانيتنا لذلك اختتم مسرحية "لا مخرج" بمقولته الشهيرة الآخرون هم الجحيم » [4] .

كما تأتي أهمية "الآخر" في الفلسفة الوجودية السارترية« أساسية جوهرية في تكوين الذات وتحديد الهوية وكذلك إسهامه في تكوين وتأسيس وجيه المنطلق الذاتي الشخصي والقومي والثقافي »[5]، إذ يجعل وجود "الآخر" ذا أهمية بالغة بحيث « يجعل الكينونة الذاتية في الوجود تعتمد بطريقة مخجلة على نظرة الآخر » [6]، وكأن هذا "الآخر" هو النواة الأساسية لوجود الذات ووعيها بذاتها في الواقع، ومنه فإن الغير ليس شيئا وإنما هو "أنا" أخرى

(1) ابن منظور أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري، لسان العرب، طبعة جديدة محققة، م1، دار صادر، بيروت، ط1، 2000، ط2، 2003، ص65.

(2) المنجد في اللغة العربية المعاصرة، مرجع سبق ذكره، ص 11.

(3) ميجان الرويلى وسعد البازغي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط3، 2002، ص22 .

(4) المرجع نفسه، ص 21– 22.

(5) المرجع نفسه، ص21.

(6) المرجع نفسه، ص22 .

مثلي، لكن كل من هذه"الأنا" و"الأنا" المقابلة لها يعملان ليتعالى كل منهما على "الآخر" – أي يتعالى على بعضهما– إن وجود الغير إذن ضروري لإثبات الذات لذاتها وإثبات "الأنا" لكينونتها، فـ"الآخر" إذن لا غنى عنه.

ومن منظور "ميشال فوكو" « فالآخر متعلق بالذات تعلقا لا فكاك ولا فرار منه، شأنه في ذلك شأن ارتباط الحياة بالموت وهو على عكس "سارتر" يرى أن الذات في استبعادها الآخر إنما تستبعد وتقصي الإنسان نفسه، فالآخر عنده هو الهاوية أو الفضاء المحدود، والآخر صورة الموت ضمن الجسد الإنساني أصبح في نظره مركز الحقل المعرفي في القرن التاسع عشر » [1] فهو عند "فوكو"حتمية لا بد منها في هذا الوجود رغم أن« الآخر عنده هو أيضا لا مفكر فيه في الوقت نفسه وهو الهامش الذي يستبعده المركز » [2] إذ أن كل واحد في الوجود يجعل أناه مركز اهتمامه مستبعدا هذا "الآخر" رغم ضرورته فنحن لا نعرف الحاضر دون الماضي، كما لا نعرف الذات دون ا"الآخر" وهكذا، ونجد أيضا مصطلح "الآخر" عند الفيلسوف "جاك دريدا" من خلال اعتماده على خطاب ليفناس فهو يرى« أن الآخر هو المصدر الحقيقي للأنا لأنها لا تستطيع خلق خارجية ضمن نفسها دون أن تصطدم بالآخر» [3] .

ومن وجهة نظر أخرى نجد معنى المصطلح يقوم على ثلاثة محاور كبرى هي كالتالي:

أ – « الآخر في أكثر معانيه شيوعا يعني شخصا آخر أو مجموعة مغايرة من البشر ذات هوية موحدة، وبالمقارنة مع ذلك الشخص أو المجموعة نستطيع تحديد اختلافنا وفي مثل هذه الضدية ينطوي هذا التحديد على التقليل من قيمة الآخر وإعلاء قيمة الذات أو الهوية، ويشيع هذا الطرح في تقابل الثقافات خاصة، وهذا ما يسود عادة في الخطاب » [4]، فـ"الآخر" يحمل عدة معاني خلاف أنه شخص آخر مغاير مغاير للذات، بحيث أنه يمكن أن يكون ذاتا أخرى، أو جماعة أخرى، أو ثقافة أخرى أيضا.

ب– "الآخر" المشهدي:« وهو بدوره لا يختلف عن الأول إلا في حالة الذات وتبلورها في مرحلة المرآة عند "جاك لا كان"، فالطفل في مرحلة النمو يحاول دائما تحقيق صورته المثالية المنعكسة في المرآة في كل مكتمل والسيطرة على جسده، لكن لهذا المشهد أثرا تغريبيا إذ أن السيطرة محاولة وبالتالي فإن الغيرية

(1) ميجان الرويلي وسعد البازغي، دليل الناقد الأدبي، مرجع سبق ذكره، ص22.
(2) المرجع نفسه، ص22.
(3) المرجع نفسه، ص22.
(4) المرجع نفسه، ص23.

جانبها التهديدي في صورة الآخر المثيل ويوجد مثل هذا الآخر توظيفه في النقد النسوي والتحديق بل حتى الإعلانات التجارية المرئية » [1] .

ت– الآخر الرمزي: وهذا "الآخر" مختلف عن "الآخر" في المحورين السابقين فله سمة خاصة به، وهو عند "لا كان" وغيره من المفكرين الفرنسيين« الآخر بامتياز، حيث يرون جميعا أن كينونة المرء لا تتحقق إلا من خلال القدرة على القول والتي تعتمد بدورها على استخدام نظاما تمثيليا "اللغة" يسبق وجود الذات، وهكذا فإن عرض الأفكار الذاتية والكيفية التي تمثل بها الذات تتأتى فقط من خلال اللغة التي تسبق وجود الذات نفسها، وهذا الوضع يجعل الوعي الذاتي نفسه مخترقا من الخارج، لأن الآخر الغربي دخل مسبقا جوهر بنيته وهذا ما يتجلى في الفلسفة الوجودية وفلسفة ما بعد الحداثة » [2]، فنجد "الآخر" يخترق الذات الإنسانية ووجودها ككائن مستقل مسبقا من خلال اللغة التي تُعدُّ جزءا من وجود الذات الإنسانية مقابل الذات الأخرى التي هي "الآخر". أما الفيلسوف الألماني "هوسرل" فقد نظر إلى« الآخر كحقيقة موجودة في الفلسفة المعاصرة وذلك في كتابه الموسوم بتأملات ديكارتية، حيث وسع الكوجيتو وأهم ما في توسعه حضور الآخر الذي أقصاه ديكارت، فهوسرل جعله ملازما للأنا أو الكوجيتو » [3] .

بينما ظل "الآخر" « في الاهتمام العربي هو الغرب » [4] فنجد العرب قد نظروا إلى الغرب على أنه الطرف المقابل لأناها ووجودها وكيانها، فـ"الآخر" هنا يمثل الغرب بكل خصائصه وقيمه ومبادئه. ومن منظور آخر نجد « الآخر الحضاري على أنه ليس عنوانا هلاميا وإنما يعني مجموع القيم والمبادئ الأساسية التي جاء بها الغرب، إضافة إلى التجربة التاريخية التي قامت بها شعوب العالم الغربي عموما، انطلاقا من تلك المفاهيم والقيم وعمل باتجاه إنزالها في الواقع الخارجي » [5]، فهذا "الآخر" يحاول غرس وبصم قيمه ومبادئه وتاريخه على الطرف المقابل له وهو "الأنا"، من أجل جعله جزءا من هويته الأصلية، فهدفه هو طمس معالم الهوية وخصائص الشخصية الحقة. ومن جهة أخرى لا يمكن إنكار فضل "الآخر" في تطوير "الأنا" لوعيها وإثبات وجودها، لأن هذا « الآخر يتضمن

(1) ميجان الرويلي وسعد البازغي، دليل الناقد الأدبي، مرجع سبق ذكره، ص23–24.

(2) المرجع نفسه، ص24.

(3) hussrel:meditation cartessiennes vrin p75 نقلا عن عبد الله بوقرن، الآخر في جدلية التاريخ عند هيجل، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه العلوم في الفلسفة، إسماعيل زروخي، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة منتوري قسنطينة، 2006 –2007، ص19.

(4) رشيد بعلي حفناوي، مسارات النقد ومدارات ما بعد الحداثة في ترويض النص وتقويض الخطاب، مرجع سبق ذكره، ص238.

(5) المرجع نفسه، ص238.

مجموعة من الإنجازات والمكاسب التي لا غنى للإنسان عنها، بمعنى أن الآخر الحضاري ضمن هذا المنظور نحن بحاجة إليه لتطوير راهننا، وأن من الخطأ الاعتقاد بأن طريق تمكن الأنا الحضارية في الواقع الخارجي يمر عبر تدمير الآخر الحضاري، لأننا نولي الاحترام والتقدير والاستفادة من المنجزات العلمية والإنسانية الهائلة التي حققتها الحضارة الحديثة في هذا العصر »[1] .

ف"الآخر" هنا مكمل لـ"الأنا" وهو الذي يساعدها في بناء ذاتها بشكل أفضل، لأنه الذي يفكر ويبدع ويُنتج وهو مقابل لـ"الأنا" بكل خصائصه. ومن جهة أخرى نجد « الآخر بوصفه شرقا أو غربا تبعا للموقع الجغرافي الذي وجد فيه صاحب المقال وهو الأكثر تداولا وآخر تعبيراته الشعرية قول جمال الدين ابن شيخ بين آية الصلاة وشدو الحياة كان الآخر في باكر الحضور الغريب الأليف في آن » [2] . أما "الآخر" الأقرب إلى التصور الصوفي فحدده أحد الفلاسفة على أنه « غير المفكر فيه » [3]، أي أنه خلاف الذات.

كما نجد مفاهيم أخرى لـ"الآخر" متنوعة ومختلفة عند بعض المفكرين منهم"جورج أورويل".(Orwell G) الذي يرى "الآخر" بصفته حاكما مستبدا، فـ"الآخر" عنده هو ذلك الطرف المتسلط والمتجبر صاحب السلطة التي من خلالها يتحكم في غيره. أما من وجهة نظر "ماركس" فـ"الآخر" هو رب العمل في رأس المال ووسيطة في الاستغلال فائض القيمة، وكأن الآخر هنا يتحدد من خلال مرتبته وتملكه للماديات[4].أي أن معنى "الآخر"هنا مرتبط بالقوة المادية والمعنوية.

(1) رشيد بعلي حفناوي، مسارات النقد ومدارات ما بعد الحداثة في ترويض النص وتقويض الخطاب، مرجع سبق ذكره، ص 239.
(2) الطاهر لبيب، الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1999، ص101.
(3) المرجع نفسه، ص 101.
(4) المرجع نفسه، ص 100.

ثالثا:طبيعة العلاقة القائمة بين الأنا والآخر

إن المعادلة التي طرفاها "الأنا" و"الآخر" هي واحدة من حتميات هذا الكون، وُجدت منذ الأزل وستظل قائمة إلى الأبد، ولا يمكن إنكار وجودها في حياتنا سواء الماضية أم الحاضرة أم المستقبلية، مهما تعددت المجتمعات واختلفت الثقافات وبغض النظر عن عوامل الجنس، العرق، اللغة والديانة وغيرها، تعد هذه الثنائية عابرة لكل هذه الحدود بل إن معادلة "الأنا" و"الآخر" موجودة حتى في الواقع الطبيعي، فكل شيء له ما يقابله وهذا يدل على شيء واحد وهو أن التباين سُنَّة وواقع لا فرار منه في حياتنا، حيث تقوم المجتمعات والدول والحضارات على الاختلاف، لقوله سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ الحجرات 13.

ولقد كان لموضوع العلاقة بين "الأنا" و"الآخر" مكانها البارز في عديد الدراسات والبحوث لعديد من المفكرين والأدباء والفلاسفة، في شتى أنحاء العالم، حيث أثارت هذه القضية جدالا واسعا ونقاشا حادا، وإن البحث في علاقة "الأنا" ب"الآخر" يحتاج حقا إلى نظرة عميقة متأنية، فنحن في حاجة إلى النظر إلى هذه العلاقة « من منظور ما يحتاجه الأنا من الآخر، ويجوز استيراده والاستفادة منه لأنه لا يضر في الأخذ من الشعوب والحضارات شريطة أخذ ما يفيد وترك ما يضر، لذا فإن إهمال الذات وتجاوز أطرها المعرفية لا يؤدي إلى فهم الآخر فهما دقيقا بل يؤدي إلى الانبهار به والتلقي الأعمى له » [1]، سواء كان هذا "الآخر" شخصا واحدا أم جماعة أم إلى غير ذلك، إذ لا يمكن للإنسان أن« يعيش بمعزل عن الناس الآخرين وبالتالي فهو منصهر في ظروف اجتماعية محددة » [2]، فكون الفرد يعيش وسط الجماعة دليل على أن ذلك يعكس« تأثر الفرد بأعمال وأفعال وآراء غيره وتأثيره فيهم » [3] فتكون بين الطرفين علاقة أخذ وعطاء.

كما أنه في ظل تأمل صورة "الأنا" و"الآخر" وما بينهما من علاقات، نجد أن كلا الطرفان ضروري لتجسيد "الآخر" إذ« أن هناك ثمة تلازم بين مفهوم صورة الذات ومفهوم صورة الآخر، فاستخدام أي منهما يستدعي

(1) رشيد بعلي حفناوي، مسارات النقد ومدارات ما بعد الحداثة في ترويض النص وتقويض الخطاب، مرجع سبق ذكره، ص239.

(2) عيسى الشماس، مدخل إلى علم الإنسان، الأنتربولوجيا، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، دط، 2004، ص155.

(3) عدنان يوسف العتوم وآخرون، التواصل الاجتماعي من منظور نفسي واجتماعي وثقافي، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، دط، 2011، ص9.

تلقائيا حضور الآخر ويبدو هذا التلازم على المستوى المفاهيمي هو تعبير عن طبيعة الآلية التي يتم وفقا لها تشكل كل منهما، فصورتنا عن ذاتنا لا تتكون بمعزل عن صورة الآخر لدينا، كما أن كل صورة للآخر تعكس بمعنى ما صورة الذات » [1]، فـ"الآخر" بمثابة المرآة التي تصور لنا ذاتنا كما هي. كما أن ثنائية "الأنا" و"الآخر" لها أثر كبير في نشوء مقولات جديدة وعديدة منها « مقولات الأصالة والحداثة والشرق والغرب، نحن والآخر، وغيرها، إن هذا الحوار مع الآخر يدعو إلى تعميق إعادة النظر في أهدافه وأساليب إجرائه، وهذا الحوار أو الموقف الثقافي الاجتماعي الذي يقبل الآخر ويقر بحقه في الوجود والاختلاف والتمايز ويرفض الصدام مع الآخر على أرضية الواقع والاختلاف » [2]، فالواجب على"الأنا" قبول هذا "الآخر" مهما كان لونه وجنسه، أو فكره ومعتقده، وبالتالي هذا الاعتراف بـ"الآخر" ووجوده هو الذي سيضمن التواصل السليم بينهما.

ونجد الكثير من الفلاسفة قد اهتموا بعلاقة "الأنا" بـ"الآخر" وتحديد طبيعتها وأهميتها في الوجود، ومن أبرزهم الفيلسوف "هايدجر" الذي تطرق لقضية العلاقة بينهما من حيث « اعتبارهما مفهومين مرتبطين، أي أن الأنا لا يمكن أن يوجد إلا في إطار علاقته مع الآخر » [3]، فكل طرف أساسي في وجود "الآخر" وعدم وجود طرف ما بالضرورة عدم وجود الطرف "الآخر"، فلا يمكن تخيل "أنا" دون "آخر" أو "آخر" دون "أنا".

أما الفيلسوف" هيجل" فقد تطرق إلى موضوع "الأنا" و"الآخر" وطبيعة العلاقة بينهما، مركزا في ذلك على الوعي باعتباره أساس الوجود الحقيقي« فالأنا عنده هي محور الذات منغلقة على أناها أي أنها هي هذه اللحظة الموجودة لذاتها »[4]، لذلك يؤكد "هيجل" على ضرورة أن يقوم الوعي بالذات بحذف الماهية المغايرة والتي هي "الآخر"، لأن الوعي بالذات يتمحور أصلا حول الذات، لكنه يؤكد أيضا على ضرورة اعتراف "الآخر" بـ"الأنا" والعكس حيث يقول« إن الوعي بالذات هو في ذاته ولذاته، فإن كان هناك وعي آخر في ذاته ولذاته أي هي ليست كذلك إلا في حالة تحصل على اعتراف بذاتها من قبل الآخر » [5]، كما أن الوعي هو أساس الإحساس وإدراك الذات لذاتها ومعرفة "الآخر" من جهة، لأن "الآخر" هو مفتاح معرفة الذات لذاتها والوقوف عليها وعلى

(1) الطاهر لبيب، صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه، مرجع سبق ذكره، ص812.

(2) رشيد بعلي حفناوي، مسارات النقد ومدارات ما بعد الحداثة في ترويض النص وتقويض الخطاب، مرجع سبق ذكره، ص240.

(3) عبد الله بوقرن، الآخر في جدلية التاريخ عند هيجل، مرجع سبق ذكره، ص19.

(4) المرجع نفسه، ص19.

(5) ألكسندر كاجيف، جدلية السيد والعبد، من"المدخل إلى قراءة هيغل"، ت: وفاء شعبان، مجلة الفكر العربي المعاصر، ع114، 115، مركز الإنماء القومي، الكويت، ص49، نقلا عن عبد الله ووقرن، الآخر في جدلية التاريخ عند هيغل، مرجع سبق ذكره، ص18.

"الآخر" في إطار تواصلي فعال مبني على ديمومة الوعي حيث« أن الوعي هو الذي يدرك معنى الإحساس بالذات والاستشعار بها في معرفة الآخر أن الذات لا تكتمل إلا من خلال الآخر المتعدد » [1] .

أما "ماكس شيلر" فهو« قد شدد على خصوصية معرفة "الآخر"، وحصرها في المودة والمحبة بوصفها من المدركات الحدسية المباشرة مع تجاهله للتنوع البالغ والتجلي الملموس الذي يمكن للآخر أن يظهر بها في الواقع الاجتماعي مقابلا الأنا، فالعلاقة عنده علاقة مودة ومحبة » [2]، فالذات منفتحة على "الآخر" فهو لا يشكل لها أدنى مشكلة بل بعكس ذلك فهو صديق وحبيب، فـ"الآخر" أصلا هو طرف أساسي« لأن جوهر الإنسان ليس مجردا وكامنا في نفس كل فرد، بل هو في حقيقته نتاج العلاقات الاجتماعية التي يعيش في إطارها »[3] حسب وجهة نظر "ماركس"وما يؤكد أيضا على وجود علاقة بين "الأنا" و"الآخر" ووجود تلازم بينهما، هو أنه لا يمكن تعريف "الآخر" بمعزل عن "الأنا" أو الذات الأخرى لأن« الآخر في المعنى القريب البسيط كل من يقارب الأنا والأنت والنحن »[4] فصورة "الآخر" تتكون من نظرة "الأنا" له والعكس، وصورته تختلف من شخص لآخر وهذا راجع لاختلاف موقف "الأنا" منه،

وفي هذا الإطار لا يمكن إنكار دور "الآخر" في تكوين صورة الذات، إذ أنه يتم« التعرف على الذات بقدر معرفة الآخر » [5]، فالذات لا تدرك نفسها إلا من خلال إدراكها لـ"الآخر" الذي يكون مرآة لها فيما بعد، « فلا فلا يمكن تجاهل الدور الذي يقوم به الآخر بشأن تصور الذات لذاتها » [6] كما أنه لا يمكن تجاوز الصراع الذي يحصل بين الطرفين أحيانا « فالآخر حاضر ويشكل أفقا وبعدا للذات وأحيانا جزءا من النظر إلى الذات » [7]، فصورة "الآخر" تتكون وتتشكل من خلال نظرة الأنا له، كذلك "الأنا" تكون صورته من خلال نظرة "الآخر" له وذلك بفعل التفاعل والاحتكاك مع بعضها البعض هذا الواصل الذي يأخذ عدة أشكال مختلفة تتراوح ما بين

(1) بشرى موسى صالح، بويطيقا الثقافة نحو نظرية شعرية في النقد الثقافي، إصدارات مشروع بغداد عاصمة الثقافة العربية، ط1، 2012، ص 6.

(2) رشيد بعلي حفناوي، مسارات النقد ومدارات ما بعد الحداثة في ترويض النص وتقويض الخطاب، مرجع سبق ذكره، ص231.

(3) عيسى الشماس، مدخل إلى علم الإنسان، الأنتربولوجيا، مرجع سبق ذكره، ص155.

(4) مي عودة أحمد ياسين، الآخر في الشعر الجاهلي، رسالة مكملة لنيل شهادة ماجستير في اللغة العربية بكلية الدراسات العليا، إحسان الديك، جامعة النجاح الوطنية نابلس، فلسطين، 2006، ص5.

(5) ماجدة حمود، صورة الآخر في التراث العربي، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، ط 1، 2010، ص32.

(6) نهال ميهدات، الآخر في الرواية النسوية العربية في خطاب المرأة والجسد والثقافة، دار الكتاب العالمي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2008، ص23.

(7) المرجع نفسه، ص23.

الصداقة والمحبة أو الصراع والعداوة أو التعالي والتنافس وغيرها.

أما العالم النفساني"فرويد" فهو يرى أن العلاقة بين "الأنا" و"الآخر" في مد وجزر بحيث « تنطوي حياة الفرد النفسية على وجود فرد آخر على الدوام باعتباره نموذجا أو موضوعا أو نصيرا أو خصما، بحيث يكون علم النفس الفردي منذ البداية علم نفس اجتماعي أيضا »[1] .

ويرى "إريك إريكسون" ذلك أيضا بحيث أنه يعتقد « أن تربية الطفل هي طريقة الجماعة في نقل وحدتها الجماعية إلى خبرات الطفل البدنية المبكرة وذاته الناشئة كما يؤكد دور العوامل الانفعالية في تربية الأطفال داخل نطاق الجماعة، فأقل المظاهر الانفعالية إنما هي وسائل تنقل الطفل إلى وحدة الجماعة »[2]، إذ يجب على الطفل أن يقبل الجماعة ويتفاعل معها كي يستطيع تحقيق ذاته من خلالها، لأن« الاعتراف بالذات يتضمن قبلا الغيرية بما هي ضرورة متبادلة بين الأنا والآخر »[3]، فلا يمكن لأحد أن يعيش منعزلا عن الآخرين، فالتفاعل الاجتماعي الاجتماعي عمل متبادل« حيث يشترك كل فرد في العمل ويكيف نفسه ليعمل مع الآخرين »[4] ويشاركهم في كل الأعمال التي يقومون بها حسب الحاجة التي يقتضيها المقام، « وذلك لأن هذه الذاتية لا تلغي وجود الآخرين »[5] فالإنسان كائن اجتماعي بطبعه وهذا الطبع لصيق به لا يتغير عبْر الزمن، رغم تنوع العلاقة التي تربطه بـ"الآخر" أو بالمجتمع.

فهل يمكن أن تتخيل نفسك أنت وحدك دون مقابل لك الذي هو" الآخر"؟ .

أو بمعنى أخر:

هل يمكن أن تكون "الأنا" شيئا دون وجود "الآخر "؟.

والإجابة هي أن « الأنا بالذات ليست شيئا، هذا إذا لم تكن جفافا صحراويا لايشعر بها كشيء إلا إذا كانت الأنت الخاصة بك أنت le toi de toi، لكن شرط أن لا تكون أنت بأي شكل من الأشكال أنا، من هنا ورطة حتمية لأنك إذا كنت حقا آخر لا تهتم بي، وإذا كنت تهتم بي لم تعد آخر حقا »[6]، أي أنك إذا لم

(1) محمود السيد أبو النيل، علم النفس الاجتماعي، دراسات عربية وعالمية، ج1، دار النهضة العربية، دط، دت، ص165.

(2) المرجع نفسه، ص165.

(3) حاتم الو رفلي، بول ريكور...الهوية والسرد، مرجع سبق ذكره، ص40.

(4) محمود السيد أبو النيل، علم النفس الاجتماعي، دراسات عربية وعالمية، ج2، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، دط، دت، ص232.

(5) رمضان الصباغ، فلسفة الفن عند سارتر وتأثير الماركسية عليها، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط 2، 2004، ص46.

(6) جان فرانسوا ماركيه، مرايا الهوية، الأدب المسكون بالفلسفة، ت:كميل داغر، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط 1، 2005، ص255 .

تكن أنا فأنت "آخر" وإن لم تكن "آخر" فأنت" أنا".

فلا يمكن الإنكار أن« الشخص يعي ذاته » [1] من خلال الآخرين، إذ أن الذات لا تدرك ذاتها بطريقة ذاتية وتلقائية، وإنما يتم الإدراك عبر الغير دائما، الغير الذي نعيش معه ونتفاعل رمزيا معه عن طريق سلسلة من الأفعال وردود الأفعال، بالأحكام والتقييمات والانتقادات المستمرة، وبرسائل متبادلة ولا يتم الوعي الوجودي لهذه الذات كما لا يمكن بنائها وتطويرها، إلا من خلال "الآخر" أو الغير، بإدراكه والوعي به وتفسير دوره ومفاوضة مكانته، وبالصراع الدائم معه سواء أكان ذلك "الآخر" حقيقة أم مجرد وهم وسواء كان قريبا أم بعيدا، وتصنع كل الذوات الثقافية لنفسها بعمليات الإدراك والبناء والوعي مراكز محورية،كما تبحث لنفسها عن آخر أيضا تحاول إبراز نفسها وإثبات ذاتها من خلاله وعلى حسابه لتكسب مركزيتها وتوازنها واستمراريتها، وفي أحيان كثيرة تكون هذه الذات عرضة للخطر من قبل الغير، وهذا ما يحصل تماما للمجتمعات فيما بينها فتحاول كل ذات تحصين نفسها والالتفات حول مركزها سر وجودها وجوهر استمراريتها تؤكده ويؤكدها، فتحميه ويحميها من خطر هذا "الآخر"[2] ، ولقد تعددت طبيعة العلاقة القائمة بين "الأنا" و"الآخر" أثناء عملية التواصل والتفاعل الاجتماعي فنجد علاقة « الصراع والتعاون والتنافس والمواءمة، ففي الصراع يوجه الأفراد أنفسهم لإيذاء خصومهم، أما في التنافس فيسلك الأفراد طريقا واحدا للوصول إلى هدفهم، ويصف التعاون مجهود الأفراد المتسق المستمر، أما المواءمة فتعني إنهاء الصراع إما بإخضاع مجموعة للأخرى أو عن طريق إيجاد حل وسط » [3] .

ولا تبتعد "هوريني" كثيرا عن هذا الرأي إذ تعتقد« من خلال تحديدها لمفهوم القلق الأساسي الذي ينشأ عن شعور الفرد بالعجز في عالم مليء بالعداء والتناقض، وأن هذا القلق يدفع إلى أن يتخذ الفرد من العالم أحد الاتجاهات الثلاثة: اتجاه ضد الآخرين، اتجاه مع الآخرين، أو الانسحاب بعيدا عن الآخرين » [4]،كما ترى أيضا أيضا أن هذا القلق يكون « أساس كل العلاقات التي كونها أو التي سيكونها الفرد مع الآخرين »[5] ، لكن رغم ذلك ورغم الصراع القائم بين "الأنا" و"الآخر" يظل "الآخر" ضروريا لـ"الأنا" والعكس صحيح.

وجدلية العلاقة بين "الأنا" و"الآخر" وجدت عمقها وكذلك توترها لدى الباحثين العرب أولهما:

---

(1) دافيد لوبروتون، أنثروبولوجيا الجسد والحداثة، ت:محمد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط 2، 1997، ص152.

(2) الطاهر لبيب، صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه، مرجع سبق ذكره، ص377.

(3) محمود السيد أبو النيل، علم النفس الاجتماعي، دراسات عربية وعالمية، مرجع سبق ذكره، ص239.

(4) علي سلمان حسين العبادي، هوية الأنا والتمرد النفسي لدى المراهقين، مرجع سبق ذكره، ص58.

(5) المرجع نفسه، ص58.

الباحثة التونسية "أسماء العريف بياتريكس" التي أمسكت« بالآخر كجزء من الذات ورأت أن نفي الآخر بتر للذات، بمعنى أن قطع الجزء منها هو الجزء الملعون من الذات، هذا رغم أنه ضروري لاكتشافها إذ تصور الذات لا ينفصل عن تصور الآخر »[1] وهذا لا يدل إلا على أن "الآخر" لا يمكن التخلص منه، فالذات لا تظهر بصورة واضحة في وجودها وكيانها إلا ضمن تواصل وتفاعل مع هذا "الآخر"، فبناء الذات لذاتها وتطويرها وانتقالها من مرحلة إلى أخرى مرهون بالطرف "الآخر" المقابل لها بحيث« لا تدرك الذات ذاتها بطريقة تلقائية مريحة وإنما يتم الإدراك عبر الغير دائما بالتفاعل الرمزي معه، بسلسلة من الأفعال وردود الأفعال بالأحكام والتقييمات المستمرة وبرسائل رمزية متبادلة » [2]، فأساس إدراك "الأنا" لذاتها ووعيها بكينونتها وشعورها مبني على "الآخر"، وكأنه لا وجود لـ"لأنا" بدون وجود "الآخر"، فهو محور تفاعل "الأنا" في وجودها وشعورها بكيانها ووعيها لأنها تتخذ عدة مواقف أثناء تفاعلها، وهذا ما يجعلها تُجسِّد ذاتها على أرض الواقع وتُطورِّها بالنسبة لهذا "الآخر".

أما "دلال البزري" فنظرتها للعلاقة بين "الأنا" و"الآخر" تقوم « مقاربتها على إبراز حدة المفارقة: المفارقة بين النسبي والكوني وبين الوعي وعدم المعرفة، فالآخر نسبي في ماهيته مع ادعاء الإلمام به ومع ذلك فالآخر ضرورة باعتبار ما له من وظيفة في بلورة الهوية وفي تنظيم الخصوصية » [3]، ومن خلال الغوص والتعمق في نظرتها هذه نلاحظ أن "الآخر" لا يمكن تجنبه أو نفيه في الوجود بالنسبة لذاتنا، لأنه هو أساس بناء هوية الذات وتنظيم خصوصيتها بالنسبة لبقية الأفراد و"الآخر" ذاته، ولكن رغم ضرورة وأهمية "الآخر" في حياة الذات إلا أنه« يبقى عدوانيا بدرجة أولى إذ لا توجد علاقة بالآخر إلا على قاعدة غالب ومغلوب، وبدون هذه القاعدة يضمحل الآخر ويصبح عدما »[4] .

وهذه هي العلاقة التي يتجلى فيها العرب والغرب، والدليل على ذلك هو أن كل طرف يسعى لإثبات وجوده وتحقيق أناه على حساب الطرف "الآخر"، وجعل نفسه مركز الوجود، وهذا الصراع هو الذي يسمح له بالبقاء والتطور في نفس الوقت، كما أنه لا يوجد "آخر" من دون الوعي بوجوده، يمكن لهذا "الآخر" أن يعيش طويلا في بقعة ما أو في زمن ما ولا نشك لحظة في أننا قد نلقاه يوما فيصير "آخر" مقابلا لذاتنا « فالعرب المعاصرون لم

(1) الطاهر لبيب، صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه، مرجع سبق ذكره، ص 22.
(2) المرجع نفسه، ص377.
(3) المرجع نفسه، ص22.
(4) المرجع نفسه، ص22.

يصدموا بالآخر الغربي إلا بعد حملة نابوليون العلمية سنة 1798، ومنذ ذلك خرجوا عن سباتهم العثماني فأعجبوا بهذا الآخر ثم تقارنوا به وقارعوه وقاتلوه » [1] .

ومن هذا فإنه يمكن القول بأن العلاقة بين "الأنا" و"الآخر" تتباين وتختلف في كل مرة وذلك حسب المواقف التي يتفاعلان فيها، فـ"الآخر" هنا كان سببا ودافعا في تطور "الأنا" التي كانت منغلقة على نفسها وذاتها دون تفاعل أو تواصل معه، فـ"الآخر" كان بمثابة تنبيه بالنسبة لـ"الأنا" التي حاولت أن تصبح مثل "الآخر" من خلال صراعها وفرض هويتها ووجودها والعلو والتفوق عليه، ويمكن القول بأن هذا الصراع هو ما جسد وجودها ووعيها، ومن منظور آخر لا يمكن للذات أن تعي نفسها ووجودها بمعزل عن "الآخر"، الذي تعتبره تهديدا على وجودها أو حاجزا أمام تطورها وبروزها وإدراكها لنفسها، لأنه « لا يتم الوعي الوجودي بالذات، كما لا يتم بناؤها وتطويرها إلا من خلال الآخر بإدراكه والوعي به، بتفسير دوره ومفاوضة مكانته، وبالصراع المستمر معا سواء أكان ذلك الآخر حقيقة أم خيالا، ومهما كان بعيدا نائيا أو قريبا جوانيا » [2]، ومن خلال هذا يمكن القول بأن أساس الوجود الفعلي والحقيقي للذات مرتبط بوعيها وإدراكها لـ"لآخر"، بالدرجة الأولى قبل وعيها بنفسها، لأنه جزء منها سواء كان هذا الوجود يتسم بعلاقة صراع أم تكامل أم نفي، فغياب الوعي والإدراك بـ"الآخر" يؤدي بالضرورة إلى غياب "الأنا "ذاتها.

كما أنه قد تراوحت العلاقة بين "الأنا" و"الآخر" أي– العرب والغرب– بين مستويات عدة، فغلب عليها العداء في فترة المد الاستعماري، واقترن هذا العِداء في أحيان كثيرة بالنظرة الدونية إلى الذات من طرف "الآخر" الغربي في نظرته لـ"لأنا" العربية، وقد عزَّز من ذلك الإحساس بتفوق "الآخر" الغربي على "الأنا" العربية في مختلف المجالات في العلوم وفنون الحرب والقتال، فهذا أدى بالنخبة العربية للانبهار بـ"الآخر" الغربي، فسعت "الأنا" إلى تقليد هذا "الآخر" في مختلف جوانبه، وكأن "الأنا" تريد أن تصبح "الآخر" في صورته وشكله ومضمونه، فكان "الآخر" بمثابة دافع وسبب في محاولة "الأنا" إلى تطوير نفسها والبروز في أعلى الصور، فهنا صراع بين "الأنا" العربية و"الآخر" الغربي، وهذا الصراع كان سببا للتقدم بالنسبة لـ"لأنا" لأن الفكر العربي قد وجد في التوجه نحو الآخر الغربي سبيلا للتقدم، كما عَبَّر عن ذلك "طه حسين" في كتابه (مستقبل الثقافة في مصر)، فالعلاقة القائمة

(1) الطاهر لبيب، صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه، مرجع سبق ذكره، ص102.
(2) المرجع نفسه، ص377.

بينهما هي علاقة صراع، لكن مضمونها إيجابي، بحيث "الأنا" أدركت وضعية ذاتها في الوجود بفضل تفاعلها مع "الآخر" الغربي[1] .

و"الآخر" هنا كان بمثابة مجهر استعملته "الأنا" لكشف نقاط ضعفها وسلبياتها واستبدالها بالايجابية، وما يزيد التأكيد على ضرورة "الآخر" في حياتنا هو أن النظرة إلى الذات تظل محكومة بالبحث عن الضد ولا تتبلور الهوية من خلال عناصرها الذاتية، وإنما من خلال اكتشاف خصم وتحديده وتحاول تمييز نفسها منه فالذات لا تدرك نفسها وهويتها الحقيقية إلا في إطار تواصلها مع الآخر بعد وجودها مقابلا لها، فهذا كله يدل على مدى التلازم الوثيق بين الطرفين فقد أبرزته أعمال علماء الغرب النفسيين « الذين اهتموا بالقضايا المتصلة بالذات الآخر وكانت أعمال وليام جيمس (William James) الأولى في هذا المجال، حيث أسست في نهاية القرن التاسع عشر أول نظرة سيكولوجية للذات »[2].ثم توالت بعدها دراسات عديدة تناولت "الأنا "و"الآخر" بالدراسة.

(1) رشيد بعلي حفناوي، مسارات النقد ومدارات ما بعد الحداثة في ترويض النص وتقويض الخطاب، مرجع سبق ذكره، ص238.
(2) الطاهر لبيب، صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه، مرجع سبق ذكره، ص812.

خلاصة:

وتبقى قضية العلاقة بين "الأنا"و"الآخر" وطبيعتها من أصعب القضايا التي واجهها الباحثون والمفكرون والأدباء والفلاسفة، وذلك راجع لطبيعة كل منهما، إذ أن الذات الإنسانية بالدرجة الأولى كيان مركب ومعقد في جوهره ويحمل الكثير من التفاعلات والوظائف المتداخلة بحيث يصعب تحديدها.

ف"لأنا" أصلا أو الذات متغيرة في شكل مستمر وتمتاز بالانفعالات السريعة التي لا يمكن التخلي عنها لأنها فطرية في الإنسان، وبالتالي فالعلاقة بين "الأنا" و"الآخر" ليست ثابتة أو محددة بل متغيرة ومتباينة تتراوح في كل مرة بين الإيجاب والسلب، الصراع والتكامل، العدوان والتعاون وغيرها، لكن ما يجب قوله هو أن "الآخر" ضرورة ملحة لا غنى عنها لمعرفة الذات لذاتها كما لا يمكن إنكار حق وجوده وتفاعله مع هذه الذات.

الفصل الثاني : الأنا والآخر في رواية كراف الخطايا

تمهيد

أولا : الأنا "الساردة" / الآخر "منصور"

ثانيا : الأنا " منصور"/ الآخر " المجتمع"

ثالثا: الانا " الساردة" / الآخر " المجتمع"

خلاصة

تمهيد:

من المسائل التي طُرحت ولا تزال تُطرح في المنظومة الفكرية والفلسفية مسألة "الأنا" و"الآخر"، إذ لقيت اهتماما بالغا وصدى واسعا وحظيت باستقطاب الدارسين في مختلف التخصصات والتوجهات، فقضية "الأنا" و"الآخر" من القضايا الحتمية في هذا الكون، إذ أنها تكاد تطغى على كل مجالات الحياة الاجتماعية والسياسية، الاقتصادية والثقافية، والجنس الأدبي أكثر الأنواع والمجالات احتفاء بها، ونذكر الرواية على وجه الخصوص من حيث أنها ظاهرة ثقافية، والثقافة نقطة ومحور تقاطع الذات مع "الآخر"، ثم كونها أكثر الأنساق المعرفية قدرة على تصوير الواقع واستيعابه، ورصد ملابسات الحياة والخوض في قضايا الهويات والخصوصيات الاجتماعية وحتى الحضارية، كونها تُعدُّ مرآة عاكسة لهوية الأمم والحضارات، فالرواية تمثل مجتمعها أحسن تمثيل، وتُعبِّر عنه أصدق تعبير، كما أنها تتمكن من إعادة تشكيل واقع آخر، أو نسقا ثقافيا آخر مجسدا في شخصيات من ورق وأحداث زمنها من حبر، وبالتالي خلق عالم يخفي داخل طياته أنساقا معرفية ثقافية وفكرية، وجميعها تتحدث بصورة مباشرة أو غير مباشرة عن مسألة الهوية أو "الأنا" و"الآخر".

فمن أكون "أنا"؟.

وماذا يعني لي "الآخر"؟.

هل "أنا" لصيق بالآخر؟ أو "أنا" مستقل عنه؟ وهكذا.

وتظهر جدلية العلاقة بين "الأنا" و"الآخر" بكل قوة ووضوح في كثير من الآثار الإبداعية الرائعة لنخبة من الكتاب والأدباء المبدعين، وهذا كله –مما لا شك فيه– ناتج عن الإحساس بالهوية أو الوعي بالذات، أي الوعي بصورة الإنسان عن نفسه ورؤيته لها وعلاقته بـ"الآخر". و(رواية كراف الخطايا) تحاول إبراز المفارقات بين "الذات" و"الآخر"، وهذا "الآخر" يُعتبر في كثير من الأحيان عقبة في طريقها، وفي بعض الأحايين يشكل خطرا يهدد وجودها وكيانها، إذ هو في حصار دائم عليها.

فكيف ستواجه "الأنا" هذا "الآخر"؟.

وكيف ستنجو من معركة شرسة معه؟.

تدور أحداث هذه الرواية حول "منصور"، فكل الوقائع مرتبطة به، "منصور" الشخصية الأكثر بساطة وتعقيدا في الآن نفسه، إذ ليس من السهل فهمه والكشف عن هويته الحقيقية ببساطة في البداية، لأن ذلك لن يكون إلا في نهاية القصة إن كان؟.

"منصور" إنسان يتيم الأب، له أم رؤوم وإخوة، لكن رغم ذلك يعيش وحيدا، بحيث أن هذه الشخصية منطوية على نفسها في أغلب الأحيان، فقررت البقاء بعيدا عن كل ما قد يشوِّش فكرها ويُنغِّص عليها أيامها، كونها الشخصية الواعية المفكرة والتي تعيش وسط أفراد احتضنهم الجهل، وأرضعهم من حليبه، وترعرعوا في مهده، فلم تتمكن من تحقيق الانسجام والتفاعل معهم، كما أنها كانت تحلم بعالم أفلاطوني مثلما تجده في الكتب، ولكن دائما كانت تعود أدراجها خائبة الرجاء، ويا ليته كان رجاء عساه يتحقق، وإنما كان تمني فكيف للتمني أن يكون؟. فكل معاناة "منصور" كانت بسبب هذا الواقع الذي رفضه رفضا تاما ولم يستطع التأقلم مع الوضع أبدا، فأبى إلا أن يكون مشعل التغيير بيده هو، فيمسك بكل فرد من أفراد مجتمعه ويخرجه من ظلمة نفسه إلى هدي الحياة، ونور الصدق والطيبة والعيش النظيف، ولكن هيهات هيهات فليس لمن تنادي حياة، فكل الناس نيام يتوسدون أوسدة من غباء، ويفترشون أفرشة من نفاق ورياء، لكن "منصور" يسعى دائما لإصلاح المعوج فيه وتخليص هذا المجتمع من الفساد الذي يعيشه.

"منصور" العقل الواعي والإنسان الجريء، والقلب الطيب، أخذ على عاتقه مسؤولية محاربة الفساد، ونشر الحب والوئام بين كل الأفراد في المجتمع، فاهتدى إلى كل حيلة وعمد إلى كل مكيدة لعله وعساه يفلح في الأخير، حتى أنه ادعى الجنون لِيُوقع الجميع في مطبَّاتهم وسوء أعمالهم، فكانت المطبَّة الأولى أن كشف جانبهم الغريزي الحيواني الطبع، والذي يَكسر الحدود في سبيل الشهوات، ففضح عورتهم هذه أمام بعضهم البعض، فسقط القناع عن القناع حيث يقول:

« سأمزق عنهم كل الأقنعة ليعرفوا أنهم ليسوا جديرين بالحياة، وأنهم لا يساوون قلامة ظفر ». (كراف الخطايا، ص66).

لكن تكاد لا تنفع معهم كل الحيل، فاهتدى إلى حيلة أخرى قد تكون أنجع، حيث عمد إلى شريط وسجَّل فيه أصوات بعض الحيوانات التي تحمل في طياتها رسائل ومدلولات، فكل صوت يرمز إلى فئة معينة من المجتمع،

فكان صوت الحمار دليل على الخطابات السياسية الزائفة، أما الضفادع فترمز إلى جماعة التغيير التي آلت إلى الفشل فما كان منها سوى اليأس والإحباط فيما بعد، منطوية داخل مستنقعها، في حين يُعدُّ صوت الدجاجة دليل على فشل جماعة سياسية أهلكتها التجارب الفاشلة، أما صياح الديك فهو الحق يخرج من أفواه بعض السياسيين الذين لا يقولون إلا ما يعتقدون أنه الحق، أما الغراب فهو أستاذ الجريمة باتفاق الجميع، وهو يرمز إلى الفئة التي تريد أن تعمَّ الفوضى في البلاد، ولقد كان النباح ضد صوت الغراب تماما، في حين كانت زقزقة العصافير الصوت الأطهر بين الأصوات جميعا، فهي ترمز إلى المستقبل المشرق والغد الباسم الخصب، والتي تعِد به كل الأحزاب الناخبين وطبعا هذا لأجل الفوز بالانتخابات!.

وحدثت بعدها فتنة كبيرة في المجتمع كان ضحيتها "منصور" إذ أُلقي القبض عليه وسجنه بتهمة التعدي على الدولة، لكنه نجى وأفرج عنه بعدها.

وهل تعتقد أنه بعد هذا وكل الذي حدث له أعدل عن قراره؟.

لا، أبدا إن الذي كان يحدث له من آلام ومعاناة لم يزده إلا إصرارا على كشف المستور هذه المرة بطريقة مباشرة، فشرع في كتابة مناشير عدة هي "تتمة المغازي في أخبار المخازي"، فلم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا وخطها على تلك المناشير، ثم قام بنشرها في كل الأمكنة، على السطوح والجدران، وعلى الأعمدة والأشجار، فدخل الجميع في الفتنة الكبرى، خاضوا حربا ضروسا سعيا للنيل من "الآخر" والانتقام منه،﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ، وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ، ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴾لأنها كانت صادقة طاهرة، فلم تلق غير الصدق جزاء لها، ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ، تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾فالويل لها مما ينتظرها.

وهنا كانت النهاية باختفاء البطل بعد أن عرف الجميع أنهم كانوا مخطئين، وأن "منصور" لم يكن مجنونا ولا ضالا وإنما هم الضالون، وأنه بذكائه وفطنته مزق عنهم الأقنعة.

- ينشطر وعي الذات في الرواية إلى أصوات عدة تتغير في كل مرة، بالرغم من أن الذات الأكثر طغيانا في الرواية تتجسد في "الذات الساردة" أو "الأنا الساردة" الراوية للحكي، إلى جانب بطل الرواية "منصور".

أولا:الأنا "الساردة"/الآخر "منصور"

ويتنوع موقع "الأنا الساردة" هنا بتنوع الأحداث والشخصيات، ويشتغل الراوي ههنا على ما يعرف«بلعبة الضمائر »[1]، إذ هي التي تحدد تمظهرات الخطاب، من اصطناع ضمير المتكلم إلى استخدام الغائب خاصة عندما يحكي عن "منصور"، واستنادا إلى ما يعرف« بالرؤية من الخلف »[2]، حيث السرد المباشر الملائم للأحداث ورصد سلوك الشخصيات والمناسب لطبيعة الرواية، ثم التطرق للمخاطَب كنمط سردي مستحدث التوظيف في المتون الروائية المعاصرة، إذ يعمد من خلاله الراوية إلى إشراك المتلقي في الفعل الحكائي« من حيث تعاطيه نشوة الحياة في صيرورتها الوجودية »[3]، وإدراجه في تجربة راهن الواقع المعيشي، وكذلك لكي يزيد في الرواية حلاوة ومتعة خاصة، يستطيع من خلالها الراوي استثارة "الآخر".

على طول خط الرواية يتحدث الراوي عن "منصور" وأحواله مع المجتمع الذي يعيش فيه، عن جنونه وشقاوته، عن سخريته وعبثه، يحكي لنا وحدته وغربته، وحشته في دياره ووسط أهله وجيرانه، بلا خليل يؤانسه، ويقاسمُه أفكاره وآراءه ومعتقداته، يشاركه خيالاته وأوهامه، وحتى أكاذيبه وخدعه التي يقوم بها في محاولة منه إلى إخراج المجتمع من ظلمة الوهم إلى نور الحقيقة، الحقيقة الضائعة بين هشيم الأفكار المتسخة والعقول المتهرئة في أدمغة أفراد ذاك المجتمع ابتداء بـ"عمي سعيد الزبال" الذي يكنس في الطرقات إلى "الشيخ" الذي يدرِّس بالمساجد. تقول "الأنا الساردة":

« وسط هذه الفوضى يعيش؛ ينام ويستيقظ، يقرأ ويكتب ويمزق ما كتب، ويصلي ويشرب ويتقيأ ما شرب، ويفعل أمورا أخرى لا يحبّ أن يطّلع عليها أحدٌ غير الله، ويستقبل أصدقاءه غير معتذر لهم، ويودّعهم غير آسف وغير شاعر بالحرج.. باختصار، وسط هذه الفوضى وهذا العبث يمارس حياته ». (كراف الخطايا، ص 03).

(1) محمد حمودي، جدل الأنا والآخر في المتن الروائي الجزائري المعاصر، الملتقى الدولي حول السرديات أسئلة الهوية في الخطاب السردي، المركز الجامعي بشار، ص 240.

(2) محمد عزّام، شعرية الخطاب السردي، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، دط، 2005، ص93.

(3) محمد حمودي، جدل الأنا والآخر في المتن الروائي الجزائري، مرجع سبق ذكره، ص 240.

تتمثل "الأنا" في "الذات الساردة" التي تصف لنا حالة "الآخر منصور" وهو يمارس حياته في عبث وفوضى، بحيث أنها تقلل من شأنه، من خلال إبرازها لحياته التي يملأها التناقض والاضطراب، والفوضى والعبث، غير آبه بما يفعله أو دون أن يدغدغه ضميره، فـ"الآخر منصور" بالنسبة لـ"الأنا " يتميز بشخصية غير سوية وغير متماسكة داخليا، فـ"الآخر" يعيش حالة نفسية مضطربة و"الأنا" تحاول تصويره في أقبح ما يكون، ليكشف عن عيوبه التي لا يحب –أي منصور– أن يعرفها غيره وكأنه يعيش في خوف من "الآخر"–أي أفراد مجتمعه– الذين ينظرون إليه بنظرة غريبة وكأنه إنسان لا يملك عقلا، فـ"الآخر" يحاول قدر المستطاع أن لا يعرف الآخرون عنه حقيقة أخرى غير الحقيقة التي هو عليها في الظاهر، فينبذونه أكثر فأكثر، ولكن رغم ذلك فهم قد تعودوا عليه.

« ولهذا، فإنه لما اختفى عن أنظار الناس –وربّما إلى الأبد– أحس الناس أن القرية قد أصابها الشلل، وهجرها الفرح، وأنها بفقده فقدت كثيرا من السعادة والبساطة، وصوّحَت فيها مواسم البراءة ». (كراف الخطايا، ص04).

لا يتحول "الآخر" بل تظل "الذات الساردة" تحكي عنه، ولكن هذه المرة بوجهة نظر تختلف عن الأولى، لأنها على مايبدو قد أعطت صورة جديدة لهذا "الآخر" أحسن من الصورة السابقة، بحيث أعطته مكانة خاصة من خلال إبراز أهميته القصوى، وأنه ذو قيمة بالغة وسط أهله، لكن للأسف لا تُعرف قيمة الشيء إلا بعد فقدانه، ف"الأنا" هنا تبُرز وتؤكد على مدى مكانته عند أهله ومجتمعه، الذي لم يحس بالأهمية البالغة للبطل إلا بعد أن اختفى عن أنظارهم فأحسوا كأنهم لم يفقدوا "منصورا" المجنون، بل فقدوا إنسانا عزيزا على قلوبهم، لأنه –على الأقل –كان الفرحة في قلوبهم، والضحكة على محيَّاهم، بل كان أصل البهجة والسعادة في ذاك المكان، كونه البريء في نظرهم والعفوي والنّقي رغم شقاوته أحيانا، لأنه كان يحيا بضميره الحي دون خداع نفسه أو مجتمعه، فـ"الآخر" يحيا حياة واعية وشعورية لأنه لم يكن حبيس "الهو" بقدر ما كان يعيش من خلال "أناه الأعلى" الذي يمثل الضمير الخلقي، ولقد كان انطواؤه على نفسه عبارة عن ردة فعل ناتجة عن رفضه للآخرين.

« وكانت نقطة التحوّل في حياته حين اعتزل الناس، واختفى عن العيون ما يقارب الشهر أو يزيد عليه قليلا، لا يبرح غرفته مطلقا، فلا يجيب مناديا، ولا يردّ على طارق، ولا يزور ولا يُزار. إنما انصرف كل الانصراف إلى كتب يقرؤها بنهم، وإلى سجائر يدخّنها بشراهة ». (كراف الخطايا، ص04).

ف"الأنا الساردة" تنظر إلى "الآخر" نظرة غريبة لما يقوم به من سلوكات، والتي جعلته ينعزل عن مجتمعه وأهله لمدة شهر، ف"الآخر" قد جعل واقعه الحقيقي هو العزلة التي لربما يتكيف معها أفضل من واقعه المر الذي يحياه ليلا نهارا، و"الأنا" تصور لنا "الآخر" وهو في واقع العزلة، سابحا في أفكاره وتخيلاته ورغباته داخل واقعه الذي تعمه الفوضى والفراغ والعبث، وحالته هذه ناتجة عن تأثره بتصرفات وسلوكات مجتمعه، مما جعله ينحو إلى العزلة، وهو لم يخضع في عزلته لقانون ورغبات مجتمعه بحيث أن« حياة الإنسان اعتمدت على العزلة النسبية، التي يحياها الفرد في محيطه الاجتماعي دون تنظيم اجتماعي أو قانون ينظم حياته، مما جعله يتصرف وفق أهوائه »[1].

ف"الآخر" يتصرف وفق ما تمليه عليه نفسه، وسلوكه هذا بمثابة موقف إزاء مجتمعه، حيث أنه قد أثَّرت عليه سلوكات مجتمعه، كونه كائن حي عضوي منفعل ومتفاعل« لأن التأثير يكون بين الطرفين (الفرد والجماعة) فهو وصف فيه كيفية تأثير الجماعة في الفرد وتأثير الفرد في الجماعة، من الناحية النفسية واصفا السمات العامة للجماعة ومدى تأثيرها على سلوك الفرد، معتبرا أن العقل الجماعي يقود الأفراد إلى سلوك مختلف تختلف فيه السمات الفردية »[2].

وسلوك "الآخر" هذا نحو مجتمعه كان بمثابة موقف من سلوكاته وأعماله الدنيئة، حيث أنه جعل "الآخر" يعيش في قلق وخوف مما أتعب نفسيته وأفقدها توازنها وتجانسها، لأن علاقته بمجتمعه ضعيفة، لكن "الآخر" كما ترى "الأنا الساردة" وهو في رحلة البحث عن الحقيقة ضيع نفسه، وتشتَّتتْ هويته وسط وحل المستنقعات التي يعيش فيها، و"الأنا" رغم ذلك تشفق على "الآخر" كونه يمتاز بالطيبة، فتمرده لا يعني أبدا أنه ظالم، وهي تعترف أيضا بنواياه الحسنة ومواقفه النبيلة، وتُقرُّ بذلك قائلة:

« فلا بد أن تعرف عنه حقيقة أخرى، انعدمت أو أوشكت أن تنعدم لدى كثير من خلق الله، وهي أنه ما يدخل المال إلا ليخرجه، وما يكسبه إلا لينفقه، وما يأخذه من جيوب سرا إلا ليدخله إلى جيوب جهرا مع بعض الفرح ». (كراف الخطايا، ص01) .

(1) مصطفى صالح الأزرق، علم النفس الاجتماعي، اتجاهات نظرية ومجالات تطبيقه، دار الفكر العربي، مدينة نصر، القاهرة، ط1، 2013، ص 25 .

(2) المرجع نفسه، ص 27.

فـ"الأنا" بصدد إعطاء صور شتى لهذا "الآخر"، فكل مرة تراه بصورة تختلف تماما عن سابقتها، وها هي "الذات الساردة" تحاول أن توضح لنا تلك الصور المتناقضة فيما بينها:

« وإياك إيّاك أن تفرح به حين تراه وراء الإمام خاشعا أو متخشّعا، وشفتاه ترتعشان بالذكر الصامت النديّ، وعيناه ذابلتان خوفًا وضراعة في حضرة الله. ثم إياك إيّاك أن تيأسَ منه حين تجده ذات ليلة ممطرة مبتلا كالكلب المنبوذ، تتقاذفه أرصفة الطرقات وهو لا يذكر حتى اسمه من أثر السُّكْر ». (كراف الخطايا، ص 02).

فـ"الآخر" لا يعرف معنى الاستقرار، فهو دائم الفوضى والعبث بل ويعاني من ضياع هويته وسط هويات الآخرين، هذا "الآخر" الذي همش ذاته لأجل أن تنجلي له ذوات الآخرين، قد ذاب في السراب وتلاشى في الظلام

« ليْس له هدَف فيقصده، أو منتهى يسْعى إليْه، حسْبه أن يمشي مسَرْبلا بالظلام النديّ البليل .. حسْبه أن يمضي مملوءًا بالهواجس والوساوس والفوضى.. مطعونا في العمق بما يُدمي الروح والقلب معا.. ». (كراف الخطايا، ص 40).

فـ"الأنا الساردة" تبين أن "الآخر" حقا يعاني من أزمة هوية، وبالتالي لم يعد« يظهر التزاما بما يقوم به من أدوار »[1]، فهو فقط يَتَّبع متاهات نفسه ووساوسه، يسير بلا هدف يسعى إليه، فهو هكذا دائم التيه في عالم غير عالمه وواقع مختلف عن واقعه، حتى صار بلا هوية، يعيش مضطربا وسط فوضاه التي أبت أن تنتهي، ولقد زاد فوق عادته في التيه والشرود بعيدا، وأن أفكاره التي أبت أن تفارقه قد طارت به إلى عالم الوساوس والهواجس، عالم مخيف ومرعب، مؤلم جدا لدرجة أنه يُدمي قلبه وروحه، يرُشُّ أيامه بالأسى والحزن، هذا "الآخر" المصمم أشد التصميم على إحداث المعجزة وتغيير ما لا يمكن تغييره، رغم كل العوائق والصعوبات، رغم الأضرار والعقوبات التي تلحقه من جهات متعددة، لكنه مُصرٌّ على إصابة الهدف طال الزمن أم قصر، المهم أن يسطع نور الحقيقة يوما و« متمنيّا لو أنّ الله يرفع الظلامَ فجأةً!.. هكذا فجأة.. ويسكب ضوء الشمس فجأة .. حينها، فإنّ كثيرًا من الناس يُضْبطون في غير مواقعهم!.. ». (كراف الخطايا، ص 40).

(1) علي سلمان حسين العبادي، هوية الأنا والتمرد النفسي لدى المراهقين، مرجع سبق ذكره، ص 159.

حينها سيصاب الجميع بصدمة كبيرة لما يرونه من هول الموقف، لأن التقي العابد صار زان، والداعي للخير فاسق، والناهي عن المنكر هو في الأصل رَبُّ الرذائل والمنكرات، وغيرها من الأمور التي قد لا تخطر ببال أحد، وكل هذا وذلك واقع مرير يتجرعه "الآخر منصور" صباحه ومساءه، نهاره وليله، فلم يعد لطعم الحياة لذة، فكل شيء فيها مجرد زيف لا أساس له من الصحة، ففقَدَ الثقة فيهم لأن الجميع خائن.

فكان هذا هو حال "منصور" أو "الآخر" في جل أيامه ألم ومعاناة، قهر وشقاء، آه كم ذاق الويلات، لكن الله يُمهِل ولا يُهمِل، وحتما سيجيء اليوم الذي يفرح فيه "منصور" ويذوق لذة الانتصار بعد إزالة الستار، صحيح إن سلوكات المجتمع جعلته يعيش صدمة كبيرة وعميقة أثرت أيما تأثير على شعوره ووعيه، وأحواله النفسية التي مُلِئت عُقدا ومكبوتاتا، وأصبح يعيش حياته في فراغ دائم بدون معنى، وكأنه فرد زائد في ذاك المجتمع الذي لا يعطي له قيمة ولا يحسِب له حسابا، بل هو مجرد معتوه –في نظرهم– رغم ما يفعله لأجلهم، حتى أنه صار يعيش حياته من خلال الأحلام التي كان بعضها مستحيلا بل وجلها، يمارس حياته داخل أفكار عبثية نابعة من ذاته، لكنه ظل متمسكا بأمل تغيير سلوكات مجتمعه نحو الأفضل، وهذه الحالة التي يعيشها "الآخر" الفردي "منصور" خير دليل على أنه جزء من "الآخر" "المجتمع" وأنه حدث تفاعل بينهما، وهذه الحالة التي آل إليها "الآخر" كان سببها تفاعله مع أفراد مجتمعه، وهذا التفاعل كان سلبيا بحيث انعكس على حياته بطريقة مباشرة، وأفقده توازنه الداخلي، وجعله يحيا في حلقة مفرغة لامناص منها، وكأن ذات "الآخر منصور" لا تتطور بقدر ما هي تتدهور نحو الأسفل، وهذا ما جعل مكانته الأدنى، لأن الإنسان الذي لا يعي وجوده لا هدف له، وبالتالي لا معنى له في الواقع الذي يعيش فيه.

وإذا كان الإنسان لا يُقدِّر ذاته، فكيف يُقدِّره الآخرون؟.

فـ"الأنا الساردة" متأسفة على الحالة التي آل إليها "الآخر منصور" بسبب المجتمع:

« ودائمًا يكون من حيث لا يشعر، ولا يريد داخِلَ بقعة الضوء، ومثارَ جدل الناس وحديثهم في المقاهي والدكاكين وأرصفة الطرقات، وحتى في البيوت.

فهم يتحدثون أنّ رئيس البلدية قد استدعاه وعنّفه، ونهاه عن مخالطة الفاجرات أو الإتيان بهنّ إلى هذه القرية، التي يريد لها أن تبقى آمنة مطمئنة، نموذجًا في الفضيلة والطهر ». (كراف الخطايا، ص 75).

تَعتبِر "الأنا الساردة" "الآخر منصور" هو بؤرة اهتمام الجميع في تلك القرية الصغيرة، بحيث كان دائما الحدث والحديث وكل مستحدث فيها، وهو الذي يكسِر أفق توقعاتهم بخروجه عما هو مألوف لديهم، ولذلك كان في أفواه وعقول أبناء القرية صغيرهم وكبيرهم، رجالهم ونساؤهم، إذ يجتره هذا ويلفظه ذاك، وهكذا دواليك، لكن حديثهم هذه المرة يختلف كثيرا عما كان سابقا، من جنون وعبث، هزل وسخرية، إنه شيء آخر غير عادي، أمر خطير جدا، لقد اتُّهِم بالزنا والإتيان بالفاحشة، ولُفِّقت حوله إشاعات كثيرة، وقيلت عنه أقاويل مريرة، التي تَحطُّ من سمعته وتَهدُر بكرامته، و"الأنا الساردة" تعرف أنه لا شيء مما قالوه صحيح، إنما هو مجرد تلفيق ما بعده تلفيق، مجرد اتهامات باطلة من طرف مجتمع يحيا حياة ملؤها الكذب والخداع والنفاق، لقد خافوا أن تتبلل أجسامهم بالماء فيظهر عليها الصدأ النابع من نفوسهم، فكان لزاما عليهم وَصَونا لكرامتهم قلب الآية عاليها سافلها، وإلصاق التهمة بمنصور، اعتقادا منهم أن "الآخر منصور" ليس له عقل فيُميِّز به بين الصالح والطالح، ولن تهمَّه كرامته ولا سمعته، ولا يعرف لهما معنا أصلا!، فـ"الآخر" بالنسبة لـ"الأنا الساردة" بمثابة وعاء وسط أهله ومجتمعه، يفرغون فيه ما يشاؤون إفراغه، وبالتالي كان دائما الفاعل والمفعول به في الوقت نفسه.

إن "الآخر منصور" قد طال شروده زيادة عن اللزوم حتى صار هائما في ضياعه:

« مثل كلّ الغرباء واللامنتمين، كان يمشي وحده في الشارع حافيَ القدميْن، متأبّطًا خفَّه النسويّ .. لماذا؟ .. هكذا ». (كراف الخطايا، ص 76).

فـ"الأنا الساردة" تصف الطرف المقابل لها في أسوء حالاته بؤسا، واصفا إياه باللامنتمي والغريب، وجعلته مجردا عن هويته أو أية هوية أخرى، عديم الأصل والأهل، لا يعرف سوى الوحشة والضياع طريقا، فيمشي فيهما سابحا في بحرهما الواسع الذي لا مرسى له، كونه يعيش حالة اضطراب وتأزُّم نتيجة للوضع السائد في مجتمعه، فانعكس كل ذلك على نفسيته، وكوَّن له نفسية منهزمة في الداخل، تعيسة لا تجد ما يُسعِدها أو تَفرَح لأجله أفئدتها، ضياع ما بعده ضياع، قد ضاع في صحراء خلَقتها له أيادي باطلة، هي أيادي ذلك المجتمع، ولا أحد ينكر« أن المجتمع حقيقة نفسية وأن الطبيعة البشرية للفرد تنشأ في المجتمع، بحيث لا يمكن الفصل بين الفرد والمجتمع، وأن الذات الفردية لا تتضح إلا في إطار الذات الاجتماعية، التي تنمو في الأسرة أو المجتمع خلال

عمليات التفاعل التي تنشأ بين الفرد ومجتمعه »[1]، وهذه حالة "منصور" وسط فساد مجتمعه الذي أفسد طباعه بدلا من أن يُصلِح هو طباعهم، لكن لا يُنكر أحد أنه قد أثر فيهم أيضا، لكن هذا التأثير لم يظهر عليهم بعد، وإنما هو سائر في طريق النمو، فربما تنقلب الأوضاع في النهاية لتصير أحسن مما كانت عليه، ولعلَّ سَهْم منصور يصيب الهدف، من يدري؟.

لكن أي حيلة سيلوذ بها هذه المرة؟.

وما هي الوسيلة؟.بعد أن فشلت معه كل الحيل، وانغلقت أمامه السبل!.

لقد فكَّر وفكَّر، من أمره وتدبَّر، ثم وصل في النهاية إلى طريقة مثلى، وحيلة قد تكون أجدى، إذ سيلعب فيها لعبة مع البشر، سيغامر رغم أنها على حياته خطر، لكنه يؤمن بأن ما شاء الله قدَّر وسيقدر، وإنما هو مجرد واسطة للقدر، بينه وبين بني البشر، لأجل هذا بالقوة شَعر، وأحاط نفسه بسيَّاج الصبر، فالصبر مفتاح الفرج والفرج أن تنفع معهم هذه العِبَر.

أمسك بالشريط وشرع في تنفيذ خطته الجديدة، قد تكون قنبلة موقوتة تنفجر خلال لحظات قصيرة، صوت الحمار، النقيق، نعم النقيق، يشبههم تماما حسب رأيه، فالناس أحمرة والبعض الآخر منهم ضفادع، نقيق مجرد نقيق للضفادع كلامُهم، مجرد أصوات متناثرة هنا وهناك بلا معنى بلا هدف نبيل، أنظر هناك أيضا، وأنصت جيدا، أصوات كثيرة تتضارب فيما بينها، كأنها في حلبة صراع، لمن النصر يا ترى؟، كل شيء يسير بطريقة همجية، لا حَكَم فيها ولا مَحكوم، وإنما تحكمهم "البراغماتية"، أي نعم ولا شيء غير "البراغماتية"، فلا تَغرنَّك بعض الكلمات العذبة، ولا بعض الابتسامات البلهاء، إنما هي تصدر من أناس لا تهمهم سوى مصالحهم وأموالهم وممتلكاتهم، ولهذا كما يرى الراوي ازدادت هموم "منصور" وزاد قَهرُها عليه، فصار يفكر بهذه المكيدة الجديدة لعلَّها تُجدي نفعا هذه المرة:

(1) مصطفى صالح الأزرق، علم النفس الاجتماعي، اتجاهات نظرية ومجالات تطبيقه، مرجع سبق ذكره، ص 28.

« وضع مشترياته على الطاولة، وجلس على السّرير ليُدير الشريط من أوّله!.. فانطلق الحمار الأشهب مفتتحًا سمفونية النهيق بعزْف منفرد، لِيَّليه الحمار الثاني ذو الأذنين الطويلتيْن، ثم الثالث فالرابع فبقيّة الحمير!.. كأن السمفونية قد بلغت قمّتَها وذِرْوَةَ توتُّرها..! ». (كراف الخطايا، ص 109).

فماذا سيكون تأثير السمفونية على الجمهور المستمع؟.

هل ستسلب العقول وتستهوي القلوب؟.

إنها مجرد سمفونية حمير!، مجرد أقوال من خشب جافة وزائفة، ولا يهمُّها سوى أن تسحَر الجميع لتنال مبتغاها، لكن "منصور" أذكى من أن تتغلغل في نفسه أو تتلاعب بعقله، إنه الأدهى منهم جميعا، إنه يمثل العقل الواعي في المجتمع، فهو يريد إيصال رسائل ذات محمولات سياسية وإيديولوجية واجتماعية إلى "الآخر"، يريد أن يُبيِّن لهم أن منطقهم ضال، واستراتيجياتهم فاشلة وأن أساسها هش.

وهناك فئة الضفادع وهي تشبه الحمير كثيرا، لكنها للأسف أقل جبروتا منها، تليها فئات أخرى وأصوات أخرى: دبيب، نباح، صياح وغيرها، وكل واحدة منها تسعى سعيا لتحقيق أكبر عدد من المستمعين إليها، فهذه المرة لم يجد "منصور" غير هذه الحيلة تنفع معهم، لعلها تكون الفرج بعد الضيق، واليسر بعد العسر، وتزول معاناته ليعيش مع الآخرين بكل حب وإخاء بدون أقنعة جوفاء.

« وانصرف وقد انتابه قلق، وطاف به شعور فحواه أن الطمأنينة بدأت تضطرب، والرضا يغالبة السخط والتّبرم وبعض الجنوح إلى الصدود ». (كراف الخطايا، ص 111).

"الأنا "هنا تتمثل في "الذات الساردة" التي تعرف عن الطرف "الآخر" كل شيء سواء الداخلي أم الخارجي، فهي تعرف أكثر مما تعرفه الشخصيات داخل الرواية ذاتها، فـ"الأنا" تصور لنا حالة "الآخر" وما يعانيه من اضطرابات نفسية بسبب معاملة مجتمعه السيئة له، وآراؤه حول ذاته –أي ذات منصور–، "الآخر" هنا يعاني أقصى المعاناة وأعمق الآلام، لأنه يعيش معاناة نفسية أكثر مما هي جسدية، وهذا لتأثير سلوكات مجتمعه عليه، وبسبب نظرتهم المريبة له، وهذا أفقده توازنه الداخلي، مما جعله يشعر بالتعاسة والهم والقلق وعدم الاستقرار

والخوف، والتي من شأنها التأثير على مهاراته الإدراكية، سواء الحركية أم العقلية، وشعوره هذا يوحي لنا بأنه فاقد للثقة بنفسه وبالآخرين، وأنه لا يشعر بكينونته بكامل قواه العقلية والنفسية داخل إطار مجتمعه.

فـ"الأنا" هنا تطيح من شأن "الآخر" الذي لا يملك ثقة بنفسه وبذاته، مما جعله يشعر بالنقص داخليا، فـ"الآخر" لا يعي حقيقة نفسه وهويته بالنسبة لمجتمعه المريض، فلو كان يشعر بذاته ويُقدِّرها لما تأثر به إلى هذه الدرجة، وهذا يحيلنا إلى أن هوية "الآخر" ضعيفة وسط مجتمعه، لخضوعه لآرائه –أي آراء المجتمع– حوله وعدم الدفاع عن ذاته، فـ"الأنا" تُبرِز "الآخر" في أضعف الهويات، وطبيعة العلاقة بينهما يتمثل في السجال حيث "الأنا" تنقص من قيمة "الآخر".

« كل احتمال تضعُه في حسبانك يستطيعه، وكلّ خطة تتصوّرها يقدر عليْها، وكل ما تعتبره ظنًّا ووهْما يصير بين يديه حقيقة ويقينًا ». (كراف الخطايا، ص 140).

"الذات الراوية" التي تُمثِّل "الأنا" تنظر إلى "الآخر" نظرة إعجاب وإكبار، بحيث جعلت من "الآخر" شخصية متميزة ومتفردة وسط مجتمعها المعاق ذهنيا وفكريا، بحيث أنها جعلت من "الآخر" شخصية خارقة للطبيعة الإنسانية، فهي ترفع من قيمته وتعترف بإمكاناته وأهميته في الوجود، وبالتالي تَبرُز هوية "الآخر" بوجه مميز يختلف عن هويات مجتمعه، و"الآخر" هنا يحتل مكانة مرموقة وعالية في نظر "الأنا" ذاتها، التي تعي نفسها ونفس "الآخر" الذي بذاته لا يعي حقيقة هويته الأصلية كما يعيها ويَعرِفها "الأنا".

والعلاقة بين "الأنا" و"الآخر" لا تتجلى في وجه الصراع والسجال والتنازع والنفي، بقدر ما هي علاقة حب وتفاهم بينهما، حيث يعترف "الأنا" بـ"الآخر" وبهويته الجوهرية وسط ذلك الجحيم، وهوية "الآخر" تتمايز عن هويات أفراد مجتمعه، بحيث تبقى هويته –في نظر "الأنا" التي تُقرُّ بإمكاناته وبكينونته– فريدة ومغايرة عن باقي الهويات الأخرى، "الأنا" تُعظِّم "الآخر" وتجعل له وجودا وأهمية كبيرة في واقعه، رغم كل ما يعانيه من مرارة وألم، وتسلط واغتصاب لأناه، وهذا لا يدل إلا على شيء هو أن "الآخر" يتحلى بالقوة والتماسك النفسي والجسدي تلك القوة« التي تعتبر عصب الحياة النفسية بالدرجة الأولى ومحورها الفعال »[1].لكن آراء "الذات الساردة" حول "الآخر" متدبدبة ومتقلبة تماما كتقلب شخصية ونفسية هذا الآخر، إذ تقول:

(1) محمد إبراهيم عيد، الهوية والقلق والإبداع، مرجع سبق ذكره، ص 139.

« ضياعه في حلقة مفرغة، مالها من معالم غير العبث والفوضى والجنون.! ». (كراف الخطايا، ص 248).

"الأنا الساردة" تدرك حقيقة "الآخر منصور" وسط مجتمعه، فهي تعطي لنا صورا بائسة للحالة التي آل إليها، فهي تصوره بأبشع الصور وأشدها فضاعة، فما أسوأ أن يعيش الإنسان داخل فوضى عارمة، وما هو أكثر سوءا من ذلك أن يعيش عيش المجانين دليلا مهانا، ليس على الكون شيء أحط شأنا منه، فـ"منصور" صارت حياته مجرد وهم في الوجود، لا يعي حقيقته ولا حقيقة هدفه وطموحه، بحيث طغت عليه خطايا المجتمع، فشوهت حياته، إذ انعكست عليها انعكاسا مباشرا وجعلته أسير العبث، يدور ويدور في نفس النقطة، يركد ويركد شيئا فشيئا حتى يصير مجرد جثة هامدة يحيط بها الضياع، وقد وصل إلى هذه الحالة، بحيث لم يعد لعقله وظيفة غير الجنون والفوضى والعبث، فـ"الأنا" جعلت "الآخر" مجرد شيء عبثي يتلاعب به أفراد مجتمعه كيفما ومتى شاؤوا، بطريقة مباشرة، وفي كثير من الأحيان بطريقة غير مباشرة، حيث أن سلوكاتهم وتصرفاتهم تؤثر عليه تأثيرا حادا، إذ كلما اكتشف "الآخر منصور" عمق الهوة بين الأفعال والأقوال الصادرة عنهم، ازداد اضطرابا وخوفا وقلقا، وهذا أثر على ممارسته لحياته سلبا، و"الأنا" تدرك حجم معاناة "الآخر" التي تكاد تكون بحرا هائجا لا يهدأ، وبالتالي يؤدي ذلك به إلى الهاوية، فلا شيء في الوجود أعمق وأخطر من المعاناة النفسية على حياة الفرد وكيانه الشعوري والعقلي. والعلاقة بين "الأنا" و"الآخر" هي علاقة ملؤها الأسف والحسرة للوضع الذي يراه كلا الطرفان، ف"الأنا الساردة" تتأسف لحالة "منصور"، في حين "الآخر منصور" يتحسر على مجتمعه تحسرا لا حدود له، جعله في صراع دائم معه، حيث أن " الآخر" يحاول أن ينفي عن الآخرين "المجتمع" تصرفاتهم السيئة حسب رأيه وبالتالي فرض وجوده.

« لما صار مرميّا في القفص المعدنيّ لسيارة الدرك الوطني، وكانت يداه مقيّدتيْن تذكّر نظرة الأسود القلقة من داخل أقفاصها في حدائق الحيوانات. وتذكّر كذلك نظرة القرود وهي تنطّ بين القضبان مع فرق "السرك".. لم يدر إلى أيّ الصورتيْن هو أقرب، وبأيّهما هو أشبه ». (كراف الخطايا، ص 195).

"الأنا" تمثلها "الذات الساردة" التي تصور لنا "الآخر منصور" وهو سجين، وهي تعرف عن الطرف "الآخر" كل ما يحيط به من أحوال نفسية وجسدية فـ"الأنا" تنظر إلى "الآخر" نظرة إشفاق على الحالة التي وصل إليها، بسبب مجتمعه وأفعاله، فـ"الآخر" كان ضحية لآراء مجتمعه حوله وحول معنى شريطه، ذلك المجتمع الذي لا يعرف سوى الظلم والخداع والخيانة حتى مع نفسه، فما بالك مع الآخرين، و"الأنا" تعلم بالحالة النفسية لـ"الآخر" تلك

النفسية المتوترة واليائسة والمحبطة، التي جعلته يتخيّل نفسه كحيوان داخل القفص، ويتساءل إلى أي صنف ينتمي منها، الآخر" هنا فقد تركيزه وقوة أناه التي تُعدُّ محور القوة النفسية للذات، وبالتالي فقدانه شعوره بكينونته ووعيه كإنسان، "الآخر" يعيش حالة قلق وإحباط وتأسف، تلك الأعراض النفسية التي تجعل "الآخر" يفقد احترامه وتقديره لذاته، "الآخر" يعيش معاناة داخل سجنين، سجن نفسي وسجن مادي، إلا أن السجن الحقيقي الذي يحياه هو جزءا من ذاته وهو السجن النفسي المعنوي، إذ لا يوجد أخطر منه، وهذا السجن العميق جعل "الآخر" يفقد شعوره بإنسانيته وتساميه كغيره من البشر، وتوازنه الداخلي، فهو هنا يحيا حياة مقيدة بعيدا عن لمسات الحرية، تلك الحرية التي تجعله إنسانا ذو قيمة بضميره الخلقي والشعوري.

ثانيا: الأنا "منصور" /الآخر"المجتمع"

وهنا يتغير موقع "الأنا"و"الآخر"في متن الرواية، بحيث "الأنا" يمثلها البطل "منصور" في مقابل "الآخر" الذي يتمثل في "المجتمع"، وطبيعة العلاقة بينهما تتأرجح بين الأخذ والرد، تقول "الأنا":

« صحيح إني جائع، ولن يشبعني إلا معرفة الحقيقة التي تواطأنا جميعا على تزييفا وإخفائها ». (كراف الخطايا، ص 06).

ف"الأنا " تحاول جاهدة الوصول إلى الحقيقة، رغم كل الذي تكابده من ظلم وقهر، فهي تسعى جاهدة في معركة الحياة مكافحة الزيف بشتى الطرق والأساليب، فالغاية عندها تبرِّر الوسيلة، ومادام الهدف نبيلا وساميا فلا حرج في أن ترتكب الحماقات وتمشي كالمجانين في الطرقات، المهم أن تصل في النهاية وتصيب الهدف بالذات، فترى كل الناس وقد بانوا على هيئتهم الأصلية، وانقشع عنهم ذاك الغطاء المصنوع بالنفاق والخداع، "فمنصور" أو "الأنا" قد عانت ما عانت من أمر مجتمعها الكثير، وهذا ما أطار النوم الهنيء والعيش السليم عن جفونها، فصاحبها الأرق ولازمها القلق، فكيف يُغمض لها جفن وأطياف الظلام تَفسق ليلا وتصلي في الصفوف الأولى نهارا؟!.

وكيف لها أن يرتاح بالها ورُسُل الرذيلة قد حطُّوا هنا وهناك؟ .

لا، هي لا تستطيع أن تدير ظهرها، وتُغمض عيونها عن الآخرين كما يفعل الجميع، هي لا تريد أن تبوء بإثمها وإثم الآخرين فتكون من الخاسرين، فـ"الأنا" ذات طموح كبير وتريد أن تسير نحو التغيير إلى الأحسن والأفضل، لها وللآخرين، فعسى أن تلقى بعد التعب أجرا ليس كمثل الأجور، فحسبها أن ترى الآخرين مبسوطين فرحين، لا يتغشَّاهم الزيف، حسبها أن ترى البراءة ترقص في فضاء عيونهم، والصفاء غامرا قلوبهم كي تعيش كأحسن ما يكون، مرتاحة البال هنيئة الخاطر.

وفي (الصفحة 07 من كراف الخطايا):

«– يا شيخ .. هل يجوز في ديننا أن نخدع الناس؟.

.....

– لا يجوز في ديننا أن نخدع أحدا مهما كان دينه أو لونه أو وطنه ».

تتمثل "الأنا" هنا في "منصور" في مقابل "الآخر" الذي يمثل "الشيخ"، لكنهما يتحدان ليصيرا هوية واحدة جماعية، هي الهوية الدينية والوطنية، كونهما ذات ديانة واحدة ووطن واحد، وعرق واحد أيضا، أما "الآخر" فقد يكون ذا هوية أخرى كأن تكون له ديانة أخرى مغايرة لـ"الأنا"، أو وطن غير وطن "الأنا"، فهي عادلة في حق الإنسانية جمعاء، فـ"الأنا" لا تظلم أحدا فكل الناس سواسية كأسنان المشط، ولا فرق بين عربي أو عجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح، فالواجب إذن عليها احترام هذا "الآخر" وإعطاؤه حقه مهما كان لونه أو جنسه أو عرقه أيضا، فلا كذب ولا خداع بين الناس، بل صدق ومحبة ووفاء، ومعاملة "الآخر" يجب أن تكون أحسن معاملة، فالإسلام « يعتبر جانب المعاملات أساس من أسس العبادة، وسبيل من سبل الوصول إلى الشكل المثالي أو على الأقل المقبول في التعبد.. لأن علاقة العبد بربه في الإسلام متداخلة مع علاقاته تجاه العباد، حيث أن كل واحدة تؤثر على الأخرى بشكل أو بآخر »[1].

فـ"الأنا "تقر بحق "الآخر" في الإحسان إليه وعدم إلحاق الضرر به مهما كان، فالعلاقة بينهما هي علاقة حب ووئام، لكن في الأصل أو كما هو موجود في الرواية فإن علاقة "الأنا منصور" ب"الآخر الشيخ" هي علاقة سجال وتنافر رغم أنهما من نفس العرق والجنس والوطن والديانة !!؟؟.

وفي (الصفحة 09 من كراف الخطايا):

«– زوّرتني.! فلم تعكس صورتي كما هي، ولم تعكس وجهي كما أراه من داخله ».

"الأنا" التي هي "منصور" في مقابلة مع "الآخر" الذي يمثل موضوعا من الموضوعات المتواجدة في هذا الكون، والذي هو كائن جماد المتمثل في المرآة والتي رغم ذلك –أي كونها جمادا– فهي بمثابة آخر لها، آخر يملؤه الزيف كالآخرين الذين يعيش وسطهم، بحيث أنها خدعته ولم تظهره في صورته الحقة، فهي تحترف الزيف تماما كما يحترفه الآخرون، بحيث المظهر يخفي كلية ما في المخبر.

(1) صلاح محمد عبد الحميد، فن التعامل مع الآخرين، هبة النيل العربية للنشر والتوزيع، دار الكتب المصرية، دط، 2011، ص 11.

ف"الأنا" ترى أن كل ذات تحوي داخلها ذوات عِدّة تتبدل كل مرة، وتتلون كالحرباء، بحسب المقام الذي يقتضيه، ولهذا رفضت ما عكسته لها "المرآة" لأنها تكره أن تكون غير صريحة مع ذاتها أو مع الآخرين، والواقع أنها لم تكن تقصد المرآة بحد ذاتها، وإنما جسَّدت الوضع القائم من خلال "المرآة"، ف"المرآة" مجرد إشارة عاكسة لكي تكون الصورة أصدق والكلام أبلغ، وتسقط الوجوه أقنعتها.

و"الأنا" في رحلة البحث عن الحقيقة واجهت العديد من الأزمات والمشاكل المتمثلة في الصراع الدائم مع هذا "الآخر" –أي المجتمع– وهذا ما أدى بها إلى الشعور بالخيبة ومرارة الهزيمة، والألم الحاد الذي يضرب في الصميم.

أيُعقل أن يكون الجميع عميانا فلا يبصرون الصدق والباطل؟.

أيُعقل أن يكون الجميع مصاب بالصمم فلا يسمعون ما يقول؟.

ولا يفقهون شيئا مما يفعل؟.

لكن "الأنا" متمسكة بالإرادة القوية والعزيمة الصادقة، ومهما كان الثمن غاليا والألم قاسيا فلن تحيد ولن تيأس حتى ينكشف المستور وينزاح عنه الغطاء تقول:

« لا بدّ أنْ أكشف لكل واحد منهم من أيّ فصيلة حيوانية هو! حين أكسر قضبان العقل ليتحرّر الوحش أو الكائن البدائيّ المأسور، الذي لم تُدَجّنه اللغة ولم تُرْضه الحاجة، ولم تزيّفه الأقنعة، حينها سأكون مرآة سحرية، تنعكس عليها كلُّ صورهم المخفية خلفَ الجلود ». (كراف الخطايا، ص13).

أي أن إصراره أبدا لن ينتهي حتى يحقق مبتغاه، ويكشف للجميع أنهم عبارة عن حيوانات شرسة في داخلهم، لكن جلودهم النتنة تلك قد سترت حقيقتهم، وأخفت هويتهم أمام بعضهم البعض، والزمن كفيل لأن يفضح كل واحد منهم، وفي الوقت المناسب والمكان المناسب، ف"الأنا" أعلى من "الآخر" وتربط بينهما علاقة صراع حادة، يعمد فيها الطرفان لاستخدام شتى الأساليب للفوز على "الآخر".

وفي(الصفحة 16 من الرواية):

«– أعذرني أنّي لم أحاورك من سنين، لم أكن أعرف أنّك حيّ..

لم أكن أعرف أنّك طير حر حطّم قضبان قفصه، وحلّق صوب وطنه الأوّل، .. كلنا نحبّ ذلك الوطن، وحتما سوف نعود إليه، مجبرين مكرهين، وأنا شخصيا ما أحسبني سوف أتأخر عنك طويلا، لأني لم أعدْ أستطيع استساغة الحياة، لقد اهترأت على وجهي عشرات الأقنعة دون أن أجدَ مكانًا لي بين الناس تحت الشمس ».

تمثل "الأنا" هنا "منصور" يقابله "الآخر" الذي يتمثل في "والده المتوفى" من سنين، إذ استحضره من خلال التخيل وهو في حوار معه ويقاسمه أفراحه وأتراحه، فالتجأ إلى روح الوالد أو صورته التي كانت تخفِّف عنه وطأة أحزانه وتواسيه ساعة يحتاج له، ف"الأنا" لم تحس أبدا بأن هذا "الآخر" هو "الأب"، كونه كان بمثابة الأنيس الوفي، يسمعه وينصت إليه، ويقاسمه همومه وأحزانه، ف"لأنا" هنا أدركت أنها في سجن مظلم من المعاناة، أما "الآخر" فتعتبره في عالم يختلف عن عالمها، لأنه لا تعمه فوضى وعبث و"الأنا" تنظر إلى " الآخر" نظرة إيجابية بحيث ترى بأنه حر لأنه تخلص من الجحيم المحرق، وهي تعبر عن رغبتها في الالتحاق به إلى ذلك العالم، لعلَّه تجد رغبتها.

ف"الأنا" هنا تحيا حياة متقلبة بأوجه متباينة، كل واحد حسب الموقف الذي هي فيه، وكأنها تعيش تأزم واضطراب في هويتها الأصلية وضميرها، لأنها لم تَعُد تستطيع تحمل ذلك الاستعباد من طرف مجتمعها ومواصلة ما كانت عازمة عليه، فهي تحيا حياة مهمشة، لأن الجميع لا يُقدِّرها ولا يحترمها ولا يجعلها ذو قيمة وأهمية في هذا الوجود، فهي لم تكن ذا أهمية بالنسبة إليهم ف"الآخر" الجماعي قلل من قيمتها ومن مكانتها وشأنها من خلال اتخاذ موقف سلبي من هذه "الأنا " ذلك الموقف الذي خلق الكراهية تجاهه وهذا كله جعلها تعيش في قهر نفسي مستمر، وتعب لا يفارقها، "الأنا" لم تجد سوى عالم والدها لعلَّها تحيا في راحة واطمئنان كبيرين، وتنعم بالعيش الكريم بمعناه الحقيقي. و"الأنا" هنا كأنها بلغت ذروة الألم والقلق، الناتج عن الشعور بالعجز في عالم مليء بالعداء والتناقض، ولهذا ف"الأنا" قرَّرت الانسحاب بعيدا عن الآخرين.

ومن جهة أخرى نجد "الأنا"تتجسد في شخصية متميزة عن سابقتها وتفتخر بذاتها لصدقها أمام "الله" تقول:

« ولكنْ عندما تراني واقفا في الصلاة، فإنّني واقف أمام الله بحق.. فقد أهرّج مع كل الناس إلا مع الله، وقد أمثل أمام الخلق إلا في حضرة الخالق.. ». (كراف الخطايا، ص 24).

و"الأنا" هنا فردية ذاتية لأنه لا يوجد أحد بمثل صفاتها وسط مجتمعها، الذي يمثل الطرف المقابل وهو "الآخر"، فهي استحضرت "والدها المتوفى" كشاهد عيان على صدق ما تقوله وتفعله، ولتُعبِّر عن ذاتها المتميزة المختلفة عن ذوات الآخرين، حيث جعلت نفسها في أحسن وأجل الصور وأكثرها شرفا وتأثيرا، بوقوفها خاشعة في حضرة الله عز وجل، فتصلي صلاة العابد القانت الذي يخشى ربه، فلا معنى للهرج والمرج أثناء تولي وجهه للقبلة، فهذا "الخالق" والذي يُعتبَر ك"آخر" أيضا عالي الشأن، متعالي في ماهيته، غني عن كل المخلوقات جميعا، مُنزَّه عن كل خطأ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾، ولذلك فهي لا تستطيع تعدي حدودها في الصلاة، وتصلي حقا، أما باقي المخلوقات من مجتمعه الساذج –فحدِّث ولا حرج– إذ لا نهاية لهزلها وتهريجها، إذ أن مكانتهم المنحطة في عينيها تجعلها لا تكن لهم أي احترام أو تقدير، فهم أناس ينافقون بعضهم بعضا، حتى في الصلوات والعبادات، أناس ليسوا صادقين حتى مع خالقهم، لأنهم يخشونه جهارا، ويعصونه سرا فالآخرون يخدعون أنفسهم بألاعيبهم هذه.

إذن ف"الأنا" متميزة عن "الآخر المجتمع" لأنها لا تخدع نفسها، عكس "الآخر" الذي يعيش بوجهين متناقضين من أجل الوصول إلى مبتغاه، وبالتالي ف"الأنا" أعلى من "الآخر" الذي تعتبره مجرد هوس يزعج ذاتها ووعيها ونفسيتها فهي واعية بذاتها وبذات "الآخر" الذي يجهل حقيقة ذاته، ووعيه المريض وهي "أنا" متفردة لا مثيل لها، تجعل ذاتها الأعلى من "الآخر" كونها على الأقل تمارس عباداتها مع خالقها بقلبها الصافي وضميرها المرتاح بعيدا عن كل الأهواء الدنيوية.

وفي (الصفحة 67 من الرواية):

« –أبي.. أنت مدعوّ هذا المساء، لمشاهدة عرض مسرحيّ هزليّ من فصل واحد، أنا الذي كتبت نصه ووزّعت أدواره وقمت بإخراجه، سيرفع الستار على بعض وجوه القرية ووجهائها..

ستراهم يفرّون من الضوء كالخفافيش، ويختفون في ظلام الزوايا وخلف الشجيرات.. ».

"الأنا" في حوار مع جزء من ذاتها وهو "الوالد" الذي استحضرته كعادتها عن طريق التخيل حول الطرف "الآخر" المقابل لها المتمثل في "الآخر الجماعي" –أي أفراد المجتمع–، بحيث أنها لم تجد أحدا يتحدث إليها أو

يقاسمها خواطرها، لأنها تعيش في وحدة قاسية، داخل غرفة عارمة الفوضى، رغم هذا فـ"الأنا" هنا تعلي من شأنها ومقامها، وتعترف بذكائها الذي استخدمته للإطاحة بـ"الآخر" وكشف حقيقته المزيفة والمشوهة، فهي رغم ما تعيشه من معاناة وقسوة فهي تعي ذاتها جيدا كما تعي ذات "الآخر" أيضا أكثر مما يعي هو ذاته، وهي تنظر إليه نظرة ازدراء وإشفاق وسخرية، من خلال تشبيههم بالخفافيش، والخفاش كما هو معروف رَبُّ المنكرات وهو رمز لكل الجرائم.

فـ"الأنا" جعلت "الآخر" في أدنى المراتب لأنه يخدع نفسه قبل أن يخدع الآخرين:

عرب وباعوا روحهم

عرب ... وضاعوا [1].

لقد ضاعوا في الجري وراء الملذات والشهوات، لقد ضيعوا نفوسهم في وحل المستنقعات، فكانت العلاقة بينهم وبين"الأنا" يشوبها الصراع والنزاع، من أجل إثبات الذات وهويتها، فـ"الأنا" تريد معرفة السمات والحدود الفاصلة بينها وبين الطرف "الآخر"، كما أنها متفائلة في التخلص من هذه الأقنعة والوجوه المزيفة، التي يستَتِر وراءها "الآخر" الجماعي، فسلوكاته المخزية جعلتها تعمد إلى استخدام نفس السلوكات معهم للإيقاع بهم، فكما هو معلوم أن الإنسان لا يدرك أخطاءه مباشرة، إلا عندما يراها متجسدة في الآخرين، كما أن سلوك "الأنا "مع الطرف "الآخر" لم يكن وليد فراغ بقدر ما كان ناتجا عن تفاعلها معه لأن « السلوك يتعلمه الفرد من المجتمع الذي يعيش ويتأثر به، عبر قوى التصارع المتفاعلة في المجتمع »[2].

فبمجرد ما يتفاعل الفرد مع الآخرين ويُكوِّن معهم علاقات اجتماعية مختلفة، حتى يكتسب ثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم سواء أكان ذلك بإرادة منه أم عن غير إرادة، وسواء أخذ عنهم صفات يحبها أم يمقتها بشدة، إذ تُعتبَر العوامل الثقافية في المجتمع « أهم العوامل التي يتفاعل معها الفرد، ويكتسب خلالها السلوك الاجتماعي المتمثل في كل القيم الثقافية، الاجتماعية، والمادية، والحضارية، التي تتفاعل مع بعضها البعض في إنتاج الشخصية

(1) ديوان محمود درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، مج1و2، دار الحرية للطباعة والنشر، بغداد، ط2، 2000، ديوان مديح الظل العالي، ص358.
(2) مصطفى صالح الأزرق، علم النفس الاجتماعي، اتجاهات نظرية ومجالات تطبيقية، مرجع سبق ذكره، ص 27.

«الإنسانية التي يتميز بها الفرد عن غيره من الأفراد الآخرين »[1]، فـ"الأنا" ليست ملامة على هذه السلوكات الطائشة التي تقوم بها حيال "الآخر"، لأنها عبارة عن رد فعل طبيعي يحصل لأي فرد في المجتمع.

يتغير "الآخر" كل مرة فأحيانا نجده جماعيا حيث يخاطب "الأنا" مجتمعه أو يتحدث معهم وعنهم، وأحيانا أخرى نجده فرديا يتحدث معه مباشرة:

« عالكم يا أبي بلا ملامح.. بلا زمن.. بلا رغبة جامحة أو رهبة كابحة.. عالم رتيب.. رتيب.. رتيب.. عالم بلا إنسان!.. شيء مفزع حقًّا أن يظل المرءُ يعيش قلقَ الانتظار وفاجعة التوقع أنّه بين اللحظة والأخرى قد يُنفَخُ في الصور، فيجمع المرْء أوزارَه ويقبل على أعْدل الحاكمين ». (كراف الخطايا، ص 35).

"الأنا" هنا تحدث صورة والدها مستحضرة إياه عن طريق التخيل، فهي تنظر إلى عالم الطرف "الآخر" بنظرة مختلفة عن عالمها الذي تعيش فيه، لأنه عالم مخيف حقا، بلا ملامح، بلا زمن يمضي، عالم الأموات حيث الناس مفزوعين، يتجرعون مرارة الانتظار كل حين، لكنهم في النهاية سيحشرون عند رَبِّ العالمين، ويكون عندها فريقان، فريق ذي الشمال، وآخر ذي اليمين، عالم رهيب، فلا طالما أرادت "الأنا" الانتساب إلى هذا العالم لسبب أو لآخر، المهم أن لا ترى واقعها المؤلم، لكنها لم تعد راغبة في ذلك بعد رؤيتها لما فيه من هلع سائد ورعب قائم، هي تشفق على "الآخر الأب" الذي يسكن تلك الدار، وفي ذلك العالم، والعلاقة بينهما هي علاقة حب وعلاقة الابن بأبيه.

"الأنا" دائما في تواصل مع الغير سواء أفراد مجتمعها أم أسرتها، حيث هنا تخاطب "أمها" دفاعا عن نفسها ونفي تهمة الجنون عنها قائلة:

« –أنا لست مجنونا يا أمّي.. والله لست مجنونا.. إنما يقولون عنّي ذلك، لكيْ يفقد قولي فيهم وحُكمي عليهم مصداقيته.. أنا أريد أن أضحك على الناس، وأكشف لهم ضحالة فكرهم وخواء روحهم.. لكنني لا أنكر يا أمي أنّي شقي من الطراز الأول ». (كراف الخطايا، ص 46-47).

(1) مصطفى صالح الأزرق، علم النفس الاجتماعي، اتجاهات نظرية ومجالات تطبيقية، مرجع سبق ذكره، ص 69.

"الأنا" هنا تعلي من شأنها وتزيل عن نفسها صفة الجنون، التي ألصقها بها الآخرون، وهي في موقف دفاعي عن ذاتها وتؤكد على صحة عقلها للطرف "الآخر" الذي معها في الحوار وهو "الأم"، والتي لم تعد تعرف حقيقة "الأنا" بعد ما رأت وسمعت –أي الأم – وهي هنا تطمئن "الآخر" بأنها ليس كذلك، وأنها ذات صافية العقل والقلب والروح، فهي متعالية عن أفراد مجتمعها ومتميزة عنهم، لأنها لم ترضخ لموقف الآخرين منها، بل دافعت ونفت عنها تلك الصفة، وهذا يدل على أنها ذات مدركة لنفسها وتحس بكينونتها وفي نفس الوقت فهي تسخر من "الآخر" لأنه لا يعي حقيقة ذاته، تلك الذات المريضة الخاوية، لا شعور لها ولا كينونة، ولا ضمير خلقي، فهو آخر جاهل بالنسبة لـ"الأنا" يعيش في الفراغ، وهي تناضل من أجل التفوق والعلو على "الآخر"–أي الآخر الجماعي–، وطبيعة العلاقة بينهما تتجلى في الصراع أن حيث « تصارع وعي الأنا مع وعي الآخر هو كي يعترف به من حيث يشكل عنصرا أساسيا بالنسبة للذات، إذ يسعى كل وعي إلى أن يعترف به من قبل الوعي الآخر »[1].

وفي(الصفحة 60 من الرواية):

« كنت في "العثمانية" وفررت من مستشفاها، لما وجدت أن كل المجانين أمّيّون، ولم يفقدوا عقولهم كما ينبغي.. إنهم يشبهونكم إلى حدّ كبير، وتشبهونهم إلى حدّ التطابق.. ».

"الأنا" هنا تستهزئ بالطرف "الآخر" المتمثل في "عمي صالح"، فهي تنقص من شأنه وقيمته كونه يمثل عنوانا للجهل والتخلف العقلي، فهو لا يفهم معنى الكلمات التي قيلت له أصلا، ولذلك فـ"الأنا" تبرز ذاتها بطريقة ذكية وتجعل "الآخر" يشعر بضآلة فكره وخواء عقله، كما أنها تُلمِّح لـ"الآخر"على أنه لا يعي حقيقة ذاته، فكيف إذا أن يعي حقيقة غيره، كما أنها تنفي عن نفسها صفة الجنون التي لازمتها طويلا، وتنسبها لـ"الآخر" كونه إنسان بلا عقل تجره الأهواء والرغبات فيعتقد أنها الصواب، و"الأنا" لم تبرز إلا من خلال تفاعلها مع "الآخر"، و"الآخر" لم يعرف هويته إلا من خلال تفاعله مع "الأنا"، وبالتالي فالمجتمع ضروري لبروز الذات ولمعرفة كل

(1) سعاد حرب، الأنا والآخر والجماعة، دراسة في فلسفة سارتر ومسرحه، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1994، ص 07.

شخص بذاته أثناء تعامله مع المحيطين به لأن « الحياة الاجتماعية تتكون من تفاعل الفرد مع الجماعة ومن تفاعل الجماعة مع الفرد، فكل منهما مكمل للآخر ومتفاعل معه »[1].

والعلاقة بينهما يشوبها الصراع، فكل واحد منهما يسعى إلى إثبات ذاته وجعل نفسه المركز، بينما "الآخر" يحتل رقعة الهامش، ويظل بينهما هذا الأخذ والرد إلى أجل غير مسمى.

« –سأكون أن الخامل، وأنا الصبيّ، وأنا الصعلوك الفقير، وأكون أن الناسك الجليل..! وسأوقعهم في الفخ.. لقد نجحت خطتي !... سأمزّق عنهم كل الأقنعة ليعرفوا أنهم ليسوا جديرين بالحياة، وأنهم لا يُساوون قلامة ظفر لوْ لمْ تخرّب المعايير ». (كراف الخطايا، ص 66).

"الأنا" تُقرُّ إقرارا بأن المجتمع أو الواقع الذي تعيش فيه لم ينصفها، ولم يضعها في المكانة المناسبة التي تليق بها، وتستحقها عن جدارة ويجب أن تكون فيها، لكن وللأسف الشديد مع كل هذا الزيف والنفاق والخداع السائد، قُلبَت الأدوار والأمكنة وصار كل واحد في موضع غير موضعه، ولذلك فهي تحاول أن تخطو خطوة واحدة للأمام، وتتحدى كل شيء وتتقمص أدوارا عِدة في سبيل الحقيقة لا غير، وذلك من خلال ذكائها وعبقريتها للإطاحة بالطرف المقابل لها، والكشف عن الحقيقة المشوهة التي تخص هويتهم، فـ"الأنا" تعلي من قيمتها وتقلل من شأن "الآخر" المتمثل في "المجتمع" الذي يجهل مدى خطورة وعيه المريض، وروحه المنافقة. وهدف "الأنا" هنا هو نزع الستار عن الحقيقة المزيفة، لجعل "الآخر" في موقف لا يُحسد عليه، إذ هو لا يمثل شيئا ذا أهمية بالنسبة لـ"الأنا" بل مجرد وهم كاذب، فجعله في أدنى المراتب التي يستحقها.

وتكمن العلاقة بين الطرفين في الصراع والتناقض، وتصرفات "الأنا" حيال الطرف "الآخر" ناتجة عن تأثرها بسلوكات المجتمع، فرغم امتلاكها لقوة الشخصية إلا أنه لا يمكنها أن تكون منعزلة عن الآخرين لأنهما كتلة واحدة و« الفرد والمجتمع يشكلان وحدة متكاملة الأجزاء يؤثر كل منهما في الآخر ويتأثر به، ولا يعني بأي حال أنهما متضادان أو مختلفان، إلا من حيث الشكل والمظهر العام وهذا ما جعل الأنا الفردية أنا اجتماعية في

(1) مصطفى صالح الأزرق، علم النفس الاجتماعي، اتجاهات نظرية ومجالات تطبيقية، مرجع سبق ذكره، ص 28.

صميمها »[1]، فكل سلوك تقوم به ناتج عن احتكاكها بالآخرين، وبالتالي فإن سلوك "الأنا" هو سلوك اجتماعي.

«–لقد تسلّل إلى حديقة بيتنا الليلة حمير وكلاب، وقد قضوا شطرًا من الليل يطوفون بالدار، وليس من عادتها أن تفعل ذلك، إنما شمّت رائحة اللحم..». (كراف الخطايا، ص 71).

تطيح "الأنا "من شأن "الآخر"الجماعي وتجعله في مرتبة دنيا هي مرتبة البهائم، التي لا تعرف شيئا سوى الركض وراء متاع الحياة، تاركة وراءها كل المبادئ والقيم الإنسانية التي يجب على كل إنسان التحلي بها، فالآخر كما تراه "الأنا" آدمي بالاسم فقط، لكن حقيقته عكس ذلك، فلا فرق بينه وبين أحط البهائم وأقبحها على الأرض، فهي تنظر إلى "الآخر" نظرة سخرية وازدراء لما يعيشوه من نفاق وخداع لذاته التي لم يقدرها أو يحترمها، و"الأنا" جعلت "الآخر" بدون وعي وشعور لأنه لا يحيا حياة "الأنا الأعلى" بقدر ما يحيا حياة "الهو"، تلك الحياة التي تنصاع وراء الشهوات، حيث نام فيه الإحساس والشعور والضمير، ولم تبق سوى اللذة مبدؤه، والمتعة غايته الأسمى، فصار في مرتبة أدنى، وسلوك "الأنا" مع "الآخر" بهذه الطريقة كان رغبة منه في كشف حقيقته المرة والتي جعلت حياتها جحيما لا ينتهي.

والحقيقة التي لا يمكن إنكارها هي أن "الأنا "تولد بذاتها ووعيها وشعورها بمعزل عن "الآخر"، إلا أن طبيعتها وكيانها المركب لا ينفي تأثرها بالآخر وبأعماله، فسلوك "الأنا "كان نتيجة لتفاعلها مع "الآخر" بحيث أن "الآخر" هو الذي جعلها يشعر بهويتها ووعيها الحقيقي، « فالهوية وحقيقتها الجوهرية تعني الأنا في حالة علاقة مع الآخر، تكشف من خلال هذه العلاقة ملامحها »[2]، فهوية "الأنا" تبرز حقيقة شخصيتها المتميزة بحيث عرفت ذاتها من خلال الطرف "الآخر" وسلوكاته، وتفاعلها معه، و"الأنا" أعلى من "الآخر" الذي لا يعي حقيقة نفسه وبالتالي ف"الأنا" وضعته في الأسفل، وهذا ما يؤكد أن الذات الإنسانية فاعل ومنفعل في نفس الوقت.

ف"الآخر" الجماعي هنا مجرد أهواء مكبوتة، تنفجر في لحظات معلومة من التنبيه والإثارة، وحينها لا مجال للكبت، بل تصير كل الرغبات والأهواء حرة متداعية واحدة تلوى الأخرى، لا تَفقه أي قانون ولا سلطة، قد

(1) مصطفى صالح الأزرق، علم النفس الاجتماعي، اتجاهات نظرية ومجالات تطبيقية، مرجع سبق ذكره، ص13.

(2) رشيد بعلي حفناوي، مسارات النقد ومدارات ما بعد الحداثة في ترويض النص وتقويض الخطاب، مرجع سبق ذكره، ص 245.

ساقتهم غرائزهم سوقا عنيفا، فأفسدت أخلاقهم، وغشت بصائرهم، وهذا هو حال "الآخر" بالنسبة لـ"الأنا"، تلك"الأنا "التي يظل همها الوحيد أحوالهم الفاسدة هذه، وكيف السبيل إلى إصلاحها؟، وما هو الدواء الذي ينفع في هذا الداء الفتاك؟.

« –أنت وجدتهم يتحدثون عن زوجتك في تلك الطاولة– وأشار نحوها– وأنت سمعتهم يتحدثون على ابنتك الطالبة الجامعية ...وأنت سمعتهم يتحدثون عن أختك ... حتى أنت وجدتهم يتحدثون عن جدتك ».

(كراف الخطايا، ص 78).

وها هي القيم والمبادئ بعيدة كل البعد عن هذا المجتمع، تفصل بينه وبينها مسافات طويلة، إذ أنه غارق في شتى الرذائل والمنكرات، ففيه الأعراض تستباح، وفيه حرمات تهتك، بين أنياب الوقحين تُجتر اجترارا سِرا وجِهارا، فلم يتركوا أحدا إلا ومَر بين أنيابهم، حتى الأمهات والجدات لم يسلمن من أذاهم، إذ ليس لهم شغل يشغلهم سوى تتبع عورات الناس وعيوبهم والسخرية منها،و"الأنا" هنا تكشف عن عيوب "الآخر" الجماعي تلك العيوب التي جعلت واقعها جحيما لا ينطفئ، ولهذا تطيح وتقلل من شأنه، لأنه يمارس حياته في المنكرات والفواحش التي من شأنها تدمير ذاتها ونفسها وشعورها،كونها جزءا لا يتجزأ منه، فـ"الأنا" أعياها هذا "الآخر"، وأتعبتها هذه الحقائق المرَّة التي تتكرر أمام ناظرها كل مَرة، بل تشتد وتعمق أكثر، لقد تعبت من "الآخر" وضاقت درعا به ومن أفعاله القبيحة، التي لا تليق بالإنسان المؤمن فعلُها، كيف لا وهو مُحرم عليه أن يغتاب أخاه المؤمن؟، لكن لا شيء له قواعد أو قوانين في هذا المجتمع فكل الأشياء فيه مركبة تركيبا معقدا، بل الآخرون من عقدوها وجعلوها مثل عقولهم المعقدة والمريضة، وأفسدوها مثل أرواحهم الفاسدة أيضا. فكل هذه الأوضاع والسلوكات السيئة والمخزية أتعبت نفسية "الأنا"، التي بذورها تؤثر على سلوكاته وسط الجحيم الذي تعيشه، لأن الفرد كائن اجتماعي بطبعه إذ « أن سلوك الفرد في حقيقته جزء من السلوك الاجتماعي، الذي يعبر عن مظاهر الحياة الاجتماعية التي يحياها الفرد بكل ما يصدر عنه، من أقوال وأفعال وأفكار وشاعر »[1].

وهكذا تظل "الأنا" في صراع دائم مع "الآخر"، صراع لا ينتهي إلا بانتهاء أحد الطرفين، فهذا ناموس من نواميس الحياة لا يتغير مهما تغيرت الظروف والأمكنة والأزمان، فمنذ أن خلق "الله" تعالى "آدم" عليه السلام

(1) مصطفى صالح الأزرق، علم النفس الاجتماعي، اتجاهات نظرية ومجالات تطبيقه، مرجع سبق ذكره، ص 39.

خلق معه هذا الصراع وجعله غريزة بشرية فيه وطبعا من طباعه، فكان أول صراع بين "آدم" و"الشيطان" الذي ظل ينصب له حتى أوقعه في شراكه، ولقد كانت "الأنا منصور" من بين ضحايا هذا "" المسمى "الشيطان" إذ كان يطوف بها في معظم أوقاتها طوافا شديدا، وليس في مقدوره التغلب عليه، إذ هو عدو عنيد لا يرضى بالهزيمة، فراودها عن نفسها لكي تحتضن أم الخبائث،لكنها كانت تحاول التملص من قبضته، فـ"الأنا" هنا في صراع مع "الآخر"، صراع يتراوح بين ضميرها الخلقي وشهواتها، فهي تعيش حياة نفسية مضطربة ومحبطة، بعيدة عن التوازن الداخلي النفسي، بحيث نجدها مَرَّة تحيا حياة "الأنا الأعلى" ومَرَّة حياة "الهو"، تلك الحياة الشنيعة، ثم نجدها تعود إلى أناها الواعية فيما بعد:

« أستغفر الله .. أستغفر الله .. إنّه الشيطان يجتاحني، يسري في دمي كدمي .. يشلّ إرادتي .. يغريني ». (كراف الخطايا، ص87).

ويبقى المد والجزر بين "الأنا و"الآخر" متواصل إلى أن يتمكن "الآخر" من إيقاع "الأنا" في شره بإرضاخها لرغبته وإرادته القوية، إذ نجد أن "الأنا" وقعت في شِباكه –أي شِباك الشيطان– وجعلها تنحوا عن أناها الأعلى إلى "الهو":

« أطبق على فمها الأملس المعطر شفتيْن مرتعشتيْن.. جرعة.. جرعتان.. ثلاث.. ثم لا ترى إلا تفاحة آدم في عنقه، وهي تصعد وتهبط ». (كراف الخطايا، ص 90).

ووقوع "الأنا" في الشَّرَك سببه القلق والإحباط الذي ينتابها، مما يجعلها تضعف وتفقد قوة أناها الإدراكية والشعورية،« تلك القوة التي من شأنها أن تحقق للفرد التوازن الداخلي »[1] مما تجعل الفرد يشعر بكينونته الواعية وجوهرها الذي يجنب التأثير السلبي على ذاته.

وفي(الصفحة 95 من الرواية):

(1) محمد إبراهيم، الهوية والقلق والإبداع، مرجع سبق ذكره، ص 167.

« أبتاه ..أنت طيب وجميل وشريف، وهذه صورتك قد احتفظت بشيء كثير من ذلك، وأنا لا أختلف عنك في ذلك، إنما لم أستطع أن أمضي مستقيما على خط منكسر، ولم أستطع أن أكون نظيفًا، وأنا أحيا في وحل المستنقع العَطِن الأسِن ».

"الأنا" هنا كعادتها استحضرت والدها لكي تقارن نفسها به، وهي تبرز شخصية هذا "الآخر الأب" النبيلة ذو الأخلاق السامية، والشرف العالي والمقام الرفيع، فهو عنوان للفضائل، ولكن الأنا للأسف لم تحفظ أمانة الأخلاق هذه، ولم تستطع أن تمشي على الطريق المستقيم، الذي كان يسير عليه والده، وهي تعترف بذلك وتقر بأنها فشلت في إتباع هدى والدها، كونها في الوقت نفسه لم تستطع أن تتجاهل ما يدور حولها في هذا المستنقع الأسن –كما يقول– إذ كيف للإنسان أن يظل طاهرا فيه ؟،فحتما ستتلوث شيئا فشيئا حتى يصير لونها كلونه.

ف"الأنا" أصبحت تكذب وتخدع وتتماطل مع "الآخر المجتمع" فهي لم تقو على الحفاظ على هويتها النظيفة وإنما سيطرت عليها هوية "الآخر"، وهذا دليل على أن الذات الإنسانية اجتماعية بطبعها، وسلوكاتها اجتماعية أكثر مما هي فردية، بحيث أنها تعيش حالة صراع وسجال مع ذاتها، وتعاني آلاما نفسية عميقة، فهي في معركة نفسية دائمة معها:

« كل التشوّهات كانت في البدء من أجل مصلحة قضيت.. كما قضيت أنا مصلحتي، لكنّ بعد ما عكّرتُ ضمائر، وخدشت نفوسا كالمرايا الصقيلة ». (كراف الخطايا، ص 128).

حقيقة لا يمكن إنكارها، الإنسان كائن اجتماعي، فمهما حاول البقاء وحيدا منعزلا عن الآخرين، إلا أنه لا يستطيع الانفصال عنهم أبدا، بل هو جزء منهم يمتد فيهم كما هم جزءا منه أيضا، يتأثر بهم ويؤثروا فيه، فالعلاقة بين الفرد والمجتمع أخذ وعطاء، لأنهما فاعل ومنفعل بطريقة عفوية، و"الأنا" كائن اجتماعي أيضا، مهما يكن لا بد أن ينعكس عليها الآخرون في جانب من جوانب شخصيتها، وهذا ما حصل لها بالضبط، ف"الأنا "هنا حاولت التخلص من الصفات الذميمة وسط مجتمعها، ونزعها عن ذات "الآخر"، إلا أنها قد وجدت نفسها قد انطبعت بطباعهم وتحلت بصفاتهم وأخذت سلوكاتهم، وحتى إن كان لمدة وجيزة من الزمن.

ف"الأنا" أصبحت هي الضالة والغاوية مع هذا "الآخر"، وهي تُقر بهذا إقرارا، وتعترف به اعترافا، وقالت ذلك صادقة مشيرة إلى أناها "أنا"، "أنا" ك"الآخر" تماما، فقد فقدت هويتها وشخصيتها المتميزة بسبب ذوبانها في

"الآخر"، فتأثرت به بدل التأثير عليه، حيث أخذت سلوكاتهم وصفاتهم الدنيئة، وهذا يدل على « أن سلوك الفرد نتاج البيئة الاجتماعية التي يعيشها ويتفاعل معها، فينشأ السلوك السوي والسلوك المنحرف »[1]، ف"الأنا" هنا تساوي "الآخر" في أفعاله وسلوكاته وخدعه النكراء، لأجل قضاء حاجاتها، ومصالحا الخاصة، وتحقيق أهدافها، وفي ظل تأمل الواقع الاجتماعي الذي تعيش فيه "الأنا" وما يسوده من سلوكات وقيم وأفكار، نلاحظ أنه كان ناتجا عن ثقافة المستعمر، ذلك المستعمر الذي جسَّد ثقافته وغرسها فيهم« لأن العوامل الثقافية أهم العوامل التي يتفاعل معها الفرد، ويكتسب خلالها السلوك الاجتماعي المتمثل في كل القيم الاجتماعية والمادية والحضارية، التي تتفاعل مع بعضها البعض، في إنتاج الشخصية الإنسانية التي يتميز بها الفرد عن غيره من الأفراد»[2]، وهذا ما عبرت عنه "الأنا" بحيث صرَّحت بأن "الآخر الأجنبي" أفسد هويتهم وغرس فيها ثقافته:

« أرضعونا الخرافة والوهم، فصارَ فينا الخوف كبيرا .. وتعلّمنا كيف نعيش لأننا نخاف أن نموت، وكيف نموت لأننا نخاف أن نعيش، وفي الحالتين نحن فاشلون وجبناء، ومهووسون ومرضى.. وهكذا صارت لدينا عقدة الخوف عقيدة... علّمونا أن نكبر لنصير صغارا.. وأن نعيش لنكون جاهزين للموت، وأن نتقدم لنعود إلى الماضي، علّمونا أن نستيقظ لنعيش لذّة التّثاؤب وانتظار النوم. ..! ». (كراف الخطايا، ص128–129).

فالمستعمر الأجنبي قد استعمر النفوس والعقول، وجعلها تعيش الوهم والسكون، بفعل اغتصابه لهوية "الأنا" ومجتمعها، مما جعل هويتها مشوهة، بفعل أفكارهم وسلوكاتهم لأن « الهوية ممارسة وسلوك، قبل أن تكون تصورا ذهنيا، ومن خلال الممارسة تتكون الهوية »[3]، وبفعل اغتصاب "الآخر" الأجنبي لهوية "الأنا" ومجتمعها، أصبحت جزءا من هوية "الآخر الأجنبي"، وبالتالي فهوية "الأنا "ومجتمعها أصبحت تتراوح وتتنازع بين الهوية الأصلية وهوية "الآخر".

وفي (الصفحة 162 من الرواية):

« أنا اعتبر نفسي أهدى الناس، ورغم فقري فأنا الأغنى ».

(1) مصطفى صالح الأزرق، علم النفس الاجتماعي، اتجاهات نظرية ومجالات تطبيقه، مرجع سبق ذكره، ص 21.

(2) المرجع نفسه، ص69 .

(3) نهال ميهدات، الآخر في الرواية النسوية العربية في خطاب المرأة والجسد والثقافة، مرجع سبق ذكره، ص 11.

"الأنا" هنا ذاتية متعالية معتزة بنفسها، رغم ما تعانيه من ظلم ومرارة وسط مجتمعها، أو بعبارة أخرى مع الطرف "الآخر" الجماعي، كما أنها تعي حقيقة هويتها الأصلية فهي تُعلي من قيمتها وتُطيح من شأن "الآخر" المريض الذي جعل نفسية "الأنا" في قلق وحيرة وخوف، مما أدى إلى فقدانه استقراره النفسي، فهي تعتز بأخلاقها وبشخصيتها التي تغنيها عن كل شيء، وتعتبر نفسها الأفضل، كما وأنها تمارس حياتها في الدرب الصحيح المستقيم، وفي المقابل "الآخر" يمارس حياته في الفواحش والمنكرات، وكل ما هو بعيد عن الضمير الخلقي الحي وعن كل ما هو إنساني.

"الأنا" تقدر ذاتها بذاتها رغم احتقار "الآخر" لها، وإلصاق التهم المخزية والصفات الذميمة بشخصيتها، ف"الآخر" يحاول الإطاحة بـ"الأنا" من خلال معاملتها السيئة لها، وأَخْذُ هذا الموقف الإيجابي من طرف "الأنا" لذاتها، دليل على مدى قوة أناها، تلك القوة التي تتضمن قدرة كبيرة على مواجهة الضغوط بمختلف أشكالها، كما أنها في المقابل لا تعير "الآخر" أي اعتبار لوجوده ورأيه نحو ذاتها، ذلك "الآخر" الذي يجهل حقيقته النفسية المريضة، "الأنا" هنا تعي كينونتها وتشعر بها وهذا ما جعلها تُعلي من قيمتها بنفسها، لأن "الآخر" ينظر إلى "الأنا" بنظرة ناقصة وغير سوية، إلا أن اعتبار "الأنا" لذاتها ووضعها في المقدمة هو دليل على أنها لا تعتبر "الآخر" موجودا بالنسبة لذاتها، فهي تقدرها وتحترمها بنفسها، لأن التقدير الحقيقي للذات ينبع من الذات نفسها، انطلاقا من قناعتها النفسية، أما تقدير "الآخر" فهو مجرد رأي عابر يزول مع مرور الزمن، حيث أنه لا يزيد ولا ينقص من هوية الفرد وشخصيته.

فالتقدير الحقيقي للذات نابع من الذات نفسها، تلك الذات التي تَشعر وتُحس بكينونتها حيث« أن الإحساس بالكينونة يمنح الشخص الأساس لتقدير الذات، وهو ليس بالضرورة انعكاسا لوجهة نظر الآخرين عنه وإذا كان تقديرك لذاتك على المدى الطويل يستند إلى التقدير الاجتماعي فحسب، فإنه ليس تقديرا لذاتك بل هو محض مسايرة اجتماعية »[1]، فتقدير "الأنا" هنا لم يكن مرتكزا على رأي "الآخر" بقدر ما كان نابعا من وعيها وقناعتها النفسية نحو نظرتها لذاتها، تلك النظرة المتعالية على الآخر، وتقديرها هذا يدل على مدى قبولها لهويتها، حيث ترفع من شأنها، وهذا هو هدفها لأن« تقدير الذات لا يكون إلا من خلال الدافع إلى التفوق

(1) محمد إبراهيم عيد، الهوية والقلق والإبداع، مرجع سبق ذكره، ص 151.

والعلو، وهذا الدافع هو الطرف النقيض لإحساسات بالنقص أو الدونية »[1]، وهذا التقدير النابع من إحساس "الأنا" وكينونتها سبيل إلى تحقيق ذاتها بالنسبة لـ"الآخر" الذي يرغب في بعثرتها، وطبيعة العلاقة بين الطرفين تتمثل في الصراع، لأن كل واحد يحاول جاهدا إنكار "الآخر"، حيث تحاول "الأنا" جاهدة مقاومة الظلم والجور الذي تتعرض له نفسيتها من قِبل "الآخر "، محاولة إثبات وجودها.

ولكن هذه الثقة بالذات لا تدوم طويلا، إذ نجدها تتلاشى شيئا فشيئا:

« –كما تراني يا سيدي الرئيس، ها أنا مرميّ كجيفة تعافها حتى الذئاب والكلاب.. ومثلي مئاتٌ مرميّون كالجيف في الأقبية الرطبة، بغير ذنب اقترفوه أو جرم اجترحوه ». (كراف الخطايا، ص 204).

"الأنا" هنا في حوار وتواصل مع "الآخر الرئيس" بل في تفاعل معه، ذلك "الآخر" الذي يحتل مكانة مرموقة في نظر مجتمعه، لِعُلو مرتبته السياسية، فـ"الأنا" هنا تطيح من قيمتها كإنسان عاقل، وتُبرِز نفسها لـ"الآخر" مشوهة ومتعفنة فهي تقلل من شأنها وشخصيتها، وبالتالي تُفقدها احترامها، فهي لا تقدِّرها بقدر ما تُهينها وتشوهها، وهذا لا يدل إلا على أمر واحد، هو أنها تعيش صراعا داخليا عنيفا مما جعلها تتجلى في صورة الضعيفة المنكسرة، ورغم ما تعانيه فهي تحاول إبراز مدى الظلم والجور والتسلط الذي تتعرض له الإنسانية بغير ذنوب مرتكبة، وتعلم عمق الفروق التي تعيشها الإنسانية ومدى تناقضها، بحيث البريء مقيد والمجرم حر وطليق، فأي حياة هذه؟.

"الأنا" هنا أوعى من "الآخر" الذي يجهل واقع شعبه ومدى الظلم الذي يتعرض له، رغم ما يعيشه من ترف –أي الرئيس–،ف"الأنا" رغم اغتصاب هويتها وتشويهها وعمق المعاناة التي تعيشها، لم يمنعها ذلك من إيصال رسالة سامية إلى "الآخر"، رسالة تخص القيم الإنسانية منها العدل :

« أنا وأنت –يا سيدي– سجينان؛ أنا تحاصرني أربعة جدران، وبعض القوانين التي لا تشك أنت شخصيّا في تفاهتها، ومن حسن حضك أنها صارت لا تجري عليك، فهنيئًا... بينما أنت تحاصرك آلاف العيون المفجوعة، وآلاف الأفواه الجائعة المقموعة وآلاف القلوب القلقة الحيرى، وآلاف السواعد المفتولة العاطلة عن العمل،وآلاف الأقدام العاطلة عن المسير.... فعلى أي جانبيك تميل؟! ». (كراف الخطايا، ص 205).

(1) محمد إبراهيم عيد، الهوية والقلق والإبداع، مرجع سبق ذكره، ص 149.

فـ"الأنا" هنا في تواصل مع "الآخر" المقابل "الرئيس" الذي يحتل مكانة سامية بالنسبة لمجتمعه، فهي تقارن وضعها بوضع "الآخر"، وتحاول إبراز وضعها أحسن من وضع "الآخر" رغم ما تعانيه من قساوة وجور من طرف المجتمع والدولة ذاتها، فهي تبرز لـ"الآخر" أن مسؤولياته أثقل وأكبر منه وأعمق، فـ"الأنا" على وعي تام بمسؤوليات الرئيس، تلك المسؤوليات التي تجعله يعيش حالة من الضغط والتّقيُّد، فكلما ازدادت المسؤوليات نقصت وقلت الحرية، و"الأنا" تعتبر سجنها أرحم من سجن "الآخر"، لأن سجن "الآخر" حصار مفروض عليه يجعله مقيدا، "الأنا" تعي جيدا واقع "الآخر"، ذلك الواقع المثقل بالمسؤوليات والواجبات والهموم الناتجة عنها، فـ"الآخر" لا يحيا حياة هادئة بقدر ما يحيا حياة متوترة ومضطربة.

وما تحاول إبرازه "الأنا" لـ"الآخر" هو اختلاف في طبيعة السجنين، وكذلك أنهما لا يمتلكان الحرية الحقيقية بمعناها، ووعي "الأنا" بحالتها وحالة "الآخر" ومدى الفرق والتباين بينهما هو دليل على أن "الأنا" ذات مدركة لكينونتها وكينونة "الآخر" فهي ذات واعية بنفسها وشعورها وضميرها، وتعي أيضا "الآخر" وحالته وهذا يشير إلى أن "الأنا" حققت ذاتها ووجودها:

« أنا أنا، ويكفيني هذا. وأنا لا أصدّق أنّني أمتد في الآخرين، أو أنني بهم ولهم، وليس يرضيني مطلقا أن يجتاز الآخرون إلي حدود أناي ». (كراف الخطايا، ص181).

"الأنا" هنا جعلت من الوالد وسيط لتبدي رأيها حول ذاتها وأناها بالنسبة للطرف "الآخر"، الذي أقلق أناها وشعورها ومزق ومزّق أحشاء ضميرها، فتتغير وتضطرب ذاتها وتتغرب عن هويتها الحقيقية، فـ"الأنا" لا تريد أي صلة بهذا "الآخر" المريض وترفضه رفضا مطلقا أن يكون "الآخر" جزءا منها أو هي جزءا منه،فنظرتها لـ"الآخر" نظرة سلبية، لأن هذا "الآخر" لا يعي حقيقة نفسه ولا يشعر بكينونته التي تجعله يحيا حياة أناه الأصلية.

"الأنا" ترفض تجاوز حدود ذاتها وشعورها، وكأنها ترفض كل سلطة تحاول اقتحام هويتها وكينونتها، ولتحافظ على تميُّز شخصيتها وصدقها، "الأنا" هنا أعلى من "الآخر" لأنها تنظر إليه نظرة ناقصة لذلك تأبى أن تكون مثله، وتأبى أن ينطبع داخلها بسلوكاته، وتأبى إلا أن تكون "أنا" متميزة عن "الآخر" الجماعي كونها تعتبر نفسها الأفضل منهم والأعلى شأنا منهم، وفي غنى عنهم، بل هم من في حاجتها، وكما تعتز بتميز ذاتها وفرديتها بالنسبة

لـ"الآخر" وترفض التواصل معه بل تنفي وجوده بالنسبة لذاتها، وطبيعة العلاقة بينهما تتجسد في التنافر والنفي، لأن "الأنا" لا تقبل أي علاقة معه.

وتبقى "الأنا "تعترف بشخصيتها وتعتز بذاتها وضميرها رغم ما تتجرّعته من الويلات وسط "الآخر"، الذي كان كابوسا بالنسبة لها، فهي تعلي من شأنها ومقامها وقيمتها وأهميتها في الوجود، وتعترف باستقلالية أناها في الوجود وحريتها:

« أنا كَونٌ مستقلّ لي زمني وفصولي، ولن أموت إلاّ حين أفقد تجانُسي ». (كراف الخطايا، ص 182).

وموقف "الأنا" من ذاتها يوحي إلى أنها تشعر بوجودها الإيجابي ونجاحها، وأنها تحس بكفاءتها وجدارتها انطلاقا من ثقتها النفسية التي تتحلى بها، وتقديرها لذاتها هو تقدير عام، لأنها تعي أن الموت الحقيقي هو فقدان التوازن والشعور والإحساس بكينونة الذات، فقدان التجانس الموجود بين الحالة الجسدية والنفسية والإدراكية «فتقدير الذات هو التقييم العام لدى الفرد لذاته، في كليتها وخصائصها العقلية والاجتماعية والانفعالية والأخلاقية والجسدية، وينعكس هذا التقييم على ثقته بذاته »[1]، فتقديرها لذاتها إيجابي عكس موقفها من "الآخر" كان سلبيا، وتقييمها لذاتها جعلها في موقف دفاعي عن كينونتها، لأنها ترفض أن تكون مجرد هوس وعبث في الوجود، وتقديرها هنا يدل على شيء جوهري هو أنها على إدراك تام لنفسها وحقيقتها وواقعها، وليس كما يرغب أن يراها "الآخر" وهذا يدل على مدى تقبلها لذاتها وثقتها بها، وتنفي وجود الآخر بالنسبة لذاتها، ووجهة نظر "الأنا" بالنسبة لـ"الآخر" الجماعي تدل على أن "الأنا" في تطور نحو ذاتها، لأنها أدركت واكتشفت الخطأ الذي قامت به تجاه أناها، حين مثّلت دور "الأنا" المجنونة وجعلتها في صورة مشوهة:

« فليس مكتوبا عليّ أن أمثل دور المجنون ليكشف الآخرون تفاهة عقلهم وتهافت معاييرهم ..أنا على يقين أنهم سوف يصعقون حين يستيقظون من حلاوة الحلم على مرارة الحقيقة ». (كراف الخطايا،ص 182).

وهذا التطور كان وليد تفاعلها داخل نسق اجتماعي.

وفي(الصفحة 228 من الرواية):

(1) خليل عبد الرحمن المعايطة، علم النفس الاجتماعي، دار الفكر ناشرون وموزعون، عمان، ط3، 2010، ص 83.

« تركتموني وحدي أواجه الدولة، فأوجعتني ضربا وأشبعتني إهانة.. لستم طيّبين كما كنت أظنّ مخدوعا، ولا عذر لكم عندي بعد اليوم.. بل أنتم من اليوم مدانون ومتّهمون، فلا بد أن يتحمل كل واحد منكم تبعة أوزاره ويستعد ليحصد غلال معاصيه ».

لقد بلغ السيل الزبى، وضاقت "الأنا" من مساوئ الآخرين الكثير، الذين اعتقدتهم لفترة أنهم رغم كل شيء أناس طيبين، لكن بدا لها عكس ذلك في النهاية، عندما تركوها وحيدة، فلم تجد من يقف إلى جانبها ويدافع عنها، وهي التي لم تبخل على الجميع بمساعداتها وإعاناتها لهم، وذاقت الذي ذاقته من آلام ومعاناة لأجلهم فقط، حتى أنها وقف ضد الدولة لمصلحتهم، لكنهم خانوها وباعوها بأبخس الأثمان.

فكيف رق قلبها لهم يوما وهم لا يستحقون؟.

على كل حال دوام الحال من المحال، لقد قررت أن تنتقم من الآخرين شرّ انتقام، وتذيقهم مذاق الهزيمة، فلا رحمة بهم بعد اليوم ولا شفقة، لن يرق قلبها لحالهم هذه المرة، بل ستخطط كيف تصعقهم بضربة واحدة، ف"الأنا" في حالة هيجان شديد وعلاقتها مع الآخرين في أشد حالاتها سوءا، صراع ما بعده صراع نحو إثبات الذات، و"الأنا" تحاول فرض وجودها كفرد في المجتمع لها كل الحقوق التي يمتلكها الآخرون، وعليها ما عليهم من الواجبات، فلن تسمح بأن يطمس الآخرون هويتها ووجودها، أو يسرقوا منها مكانتها بعد اليوم، لأنهم سيتلاشون يوما بعد يوم، وستطفو عليهم أوزارهم ومعاصيهم لتغرقهم وتدفنهم في باطنها.

تركوها وحيدة وما سألوا عنها، بل أنهم لم يقصروا في السخرية منها والضحك عليها، وجعلوها أضحوكة لكل الناس في ذاك المجتمع، فأصبح حالها كحال الشاعر حين يقول:

أطارح بيني .... أغالب حزني
فيغلبني الدمع .... يجرفني في خراب المدى
كنت وحدي طريح النوى، مثل غصن حقير
على الأرض ملقى ....[1]

(1) يوسف وغليسي، تغريبة جعفر الطيار، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، قسنطينة، ط2، 2003، ص 29.

لهذا ستثأر منهم جميعا، لتكون نهاية أحزانها وبداية معاناتهم، هم الظالمون، الخائنون والضالون، وسيأخذهم غيهم وضلالهم إلى العدم وسِدرت المنتهى، فـ"الأنا" هنا أعلى شأنا من "الآخر" لأن غايتها أسمى وهدفها نبيل، في حين "الآخر" أقل وأدنى منها كونه يمثل كل قبيح وكل فعل دنيء.

ويبقى واقع "الأنا" دائما في صراع مع مجتمعها من أجل إثبات ذاتها ووجودها، كفرد له قيمة وشأن بعيدا عن الصفات التي يلصقها بها الآخر الجماعي:

« أنا لست مجنونا ». (كراف الخطايا، ص110).

فـ"الأنا" هنا تؤكد على مدى استواء شخصيتها، وصحة عقلها بنفيها ومعارضتها الطرف "الآخر" في رأيه حولها، فهي تنفي وتنزع صفة الجنون عنها ورد فعل "الأنا" على "الآخر" يدل على شيء واحد وهو مدى وعيها بذاتها وشعورها، ورد فعل "الأنا" ناتج عن قناعة نفسية داخلية بصحة عقلها،فـ "الأنا" هنا لم تنصاع ولم تكتف بالاستجابة لمثيراتالآخر" وردود أفعاله، ولم ترضخ للواقع الذي أراد "الآخر" فرضه على ذاتها لأن« الذات كعضوية فاعلة وليست ببساطة وعاء سلبيا يتلقى المثيرات ويستجيب لها»[1]، فهي هنا في موقف دفاعي عن ذاتها لقوة أناها وإرادتها وثقتها بها، وطبيعة العلاقة بينهما هي علاقة صراع وتناقض حيث يحاول "الآخر" إبراز "الأنا" في أبشع الهويات ليطيح من مكانتها وفي المقابل الرفع من مكانته، رغم أن صفة الجنون تنطبق عليه وليس على "الأنا" التي كانت ضحية له حيث أن "الآخر" لا يكن له أي احترام وشعور بأنه إنسان له مشاعر وأحاسيس.

فـ"الآخر" يحاول التخلص من "الأنا" لحماية ذاته من الزوال، وانكشاف حقيقة هويته النتنة من طرف "الأنا" التي تدركها، فت"الآخر" يعتبروها تهديدا وخطرا على حياته، لهذا يحاول تجريدها من عقلها وهويتها:

« أنا الضائع الكريه، كعربة تجتذبها الأحصنة من الجهات الأربعة ». (كراف الخطايا، ص 219).

"الأنا "تعترف بضياعها وأنها مجرد عجينة يتحكم فيها "الآخر"، وهذا الشعور بالانحطاط والضعف ناتج عن تأثير سلوكات "الآخر" على نفسيتها المتوازنة حيث أفقدتها توازنها وتجانسها السيكولوجي، حيث أصبحت

(1) رث والاس ألسون وولف، النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، تمدد أفق النظرية الكلاسيكية، ت: محمد عبد الكريم الحوراني، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، جامعة اليرموك، الأردن، ط1، 2011-2012 ص332.

تعيش في اضطراب وخوف وقلق وشعور بالنقص، الذي جعلها تقلل من أهميتها وقيمتها كذات لها شعورها وإحساسها وسط مجتمعها، وهذا راجع لضعف إرادتها، وهذا ماجعلها تهينها وتسقطها إلى الأسفل، وبالتالي شعورها هذا يؤثر على أفعالها وسلوكاتها وأفكارها مع مواقف مختلفة، "الأنا" هنا وصلت إلى أخطر المراحل حيث أنها أنزلت من قيمتها ومكانتها الخاصة التي منحها إياها الخالق لتميزها عن سائر المخلوقات الحية، فهي تنفي بصمة وجودها كعنصر عضوي فاعل ومنفعل في الواقع، وهذا أدى بها إلى الفشل في إثبات ذاتها وتقديرها وبالتالي عدم تحقيقها، مما جعلها تنقص من مستواها وانحصار إمكانياتها وطاقاتها داخل ذاتها، وهذا أدى إلى ظهورها في أبشع الصور والهويات وأضعفها، لأنها تعاني من قهر نفسي حاد بسبب فقدانها قوة أناها حيث« قوة الأنا من شأنها أن تحقق للفرد ذلك التوازن الداخلي »[1] الذي بفضله يحيا الفرد حياة شعورية متوازنة، بعيدا عن التوتر والاضطراب والخوف والقلق، فـ"الأنا" هنا تنسلخ تماما من هويتها الجوهرية وأناه الأعلى التي تتمثل في أنه إنسان عاقل ومثقف وواع ومدرك لذاته وإحساسه بكينونته.

(1) محمد إبراهيم عيد، الهوية والقلق والإبداع، مرجع سبق ذكره، ص 167.

ثالثا: الأنا "الساردة" / الآخر "المجتمع"

وهنا يتغير موقع "الأنا" مجددا لتتجسَّد مرَّة أخرى في "الذات الساردة"،في حين يشكل المجتمع الطرف المقابل لها، تقول:

« وما أجلّ "عمّي صالح" لو أنه يظل طيبا ووقورا مع كل الناس، كما هو مع "الشيخ"! فكأنه ليس هو الذي كان منذ برهة من الزمان يحاول استدراج "منصور" إلى الحديث عن الخمر إكراما لما بينها وبينه من ذكريات! ». (كراف الخطايا، ص06) .

"الأنا الساردة" هنا تصف لنا حالة الانقلاب التي تطرأ على "الآخر" المتمثل في "عمي صالح" صاحب المقهى، إذ تراه مَرَّة بوجه طيب يملأه الصفاء والوقار، ومَرَّة أخرى تجده عكس ذلك، قد صار ذليلا مهانا أمام أمِّ الخبائث "الخمر"، وهذا التغيير الذي نلحظه يرافق معظم شخصيات الرواية ذات الأقنعة المتعددة، إذ كل يوم نجدها بقناع جديد قد تُبدِّل لونه وشكله، فـ"الآخر" في الرواية يحترف الزيف بامتياز، وإلا بماذا تفسر هذه الهوة الواسعة بين حالة "عمي صالح" الأولى وهو يقف أمام "الشيخ"، ثم موقفه الثاني مع "منصور" وحديثه عن الخمر صاحبته القديمة؟.

على كل حال إن موقف هذا "الآخر" مثالا لا يختلف عن مواقف الآخرين هناك وتصرفاتهم الشنيعة الخالية تماما من القيم والمبادئ:

« إنهم يثرثرون، ويكذبون ويقسمون أنهم لصادقون.. إنّ القاعة تشبه خشبة مسرح بلا جدران، والممثلون هم المتفرّجون، والمتفرّجون هم الممثلون.. وكلّ واحد يساوي كلّ شيء ويساوي لا شيء في نفس الوقت..! ». (كراف الخطايا، ص10).

فـ"الأنا الساردة" تعرف جيدا طبائعهم وصفاتهم، وهي تعلم أيضا ما تخفي صدورهم من كذب وخداع، لكنها أبدا لا تتدخل في الأحداث، فلا تُغيِّر ولا تحاول أن تقلب الأوضاع كما يفعل "منصور"، وإنما تكتفي بالمشاهدة والتعليق ووصف لنا أحوال "الآخرين" وسلوكاتهم العبثية تلك، التي صاروا لا يحسدون عليها. فـ"الآخرون" كالممثلين داخل مسرح، يعتقدون بأنهم نجوم الليالي تلمع في السماء، والجماهير الغفيرة ترصدهم

مستمتعة ببريقهم الخلاب، من الترهات والخرافات التي يملأون بها نهارهم، فهم مثل الممثلين تماما إذ لا شيء مما يقولونه أويفعلونه صحيح، بل إنما هي إدعاءات باطلة وأكاذيب يزيد حجمها يوما بعد يوم، ولقد استخدمت "الأنا الساردة" لفظة –بلا جدران– للإشارة إلى أن مساحة تهريجهم وتمثيلهم لا حدود لها، فهم في تواصل مستمر على عاداتهم تلك وفي علاقة حميمية معها.

إذ كيف يضحكون إذا لم يكذبوا ويهرجوا؟.

وكيف يستمتعوا إذا لم يجعلوا الباطل حقا والحق باطل؟.

فهذه هي حياتهم وهذه هي سيرتهم من كبيرهم إلى صغيرهم، ومن نسائهم إلى رجالهم، فلا فرق بينهم سوى في أشكالهم لكن لهم نفس الطباع، ولكن تبقى "الأنا الساردة" مجرد متفرج على المسرح، فترى ما يدور وتبصر ما يجري حولها، وتكتشف أخيرا أن كل ما يحدث مجرد زيف، وأن الموجودين على المسرح ذاك يضعون وجوها أخرى تخفي حقيقتهم، ولكن ما عساها تفعل شيئا؟.

وفي مشهد آخر من الرواية نلحظ تصرفات أخرى لا تختلف كثيرا عن ذي قبل، ولكن هي تحمل المتفرج عليها للشفقة على حالة الآخرين والحسرة عليهم، وهذا واضح في (الصفحة 11 من الرواية):

« وكانت شلّة الأصدقاء التي تجمّعت حوله غارقة في الضحك الفوضويّ..لقد كانت تبحث عن أيّ موقف يجعلها تضحك بلا ضوابط.. فهي تكاد أن تفيض بالعذابات والأحزان.. ».

إذ "الأنا الساردة" تعرف أن خلف تلك الضحكات معاناة، وأن وراء ذلك العبث والفوضى آلام وأحزان خفية للغاية، تظهر دائما في شكل مختلف، فلا يمكن أن ترى شخصا حزينا كاسف البال حتى وإن كان هو كذلك من الداخل، بل تراه لاهيا ضاحكا، وهكذا هم الآخرون ولهذا فإنهم يبحثون عن أكثر المواقف تفاهة ليضحكوا بلا ضوابط تحكمهم، أو قوانين تردعهم، لعلَّهم ينسون بعضا من مأساتهم، فـ"منصور" الذي جعل الآخرين يضحكون عليه ويستهزئون به أيضا، كان وعيه أكبر بكثير وأعظم من الآخرين جميعا، لأنه حمل على عاتقه مسؤولية التغيير ولو على حساب حياته وسعادته، في حين كانوا يعيشون عيشا عشوائيا عبثيا، فرغم ما

يقاسونه من ظروف صعبة إلا أنهم مستسلمون للوضع استسلاما مطلقا، يتعذبون ويتوجعون من الداخل دون أن يُحرّكوا ساكنا.

وفي (الصفحة 17 من الرواية):

«حقًّا.. إنه يحسد ويحقد، ويتمنّى لو أن الأيام تحوج إليه جاره. فيسأله فيمنعه. آه!..يا لها من لذّة عظيمة لما تملك وتستطيع أن تنفع فتمنع.. يا لها من لذّة أعظم حين تلهث خلفك العيون حتى يصيبها الإعياء واليأس، وتمتدّ إليك الأيدي الجائعة على أمل فتنقلب خاسئة يائسة أجوع، ما بلّها معروف ولا روّاها ندى! ».

"الأنا الساردة" هنا تعرف أكثر مما تعرفه الشخصيات في الرواية، فهي تدرك ما يجري من أحداث سواء المرئية أم المخفية في الصدور والعقول، إذ تستطيع قراءة ما يدور في باطن "الآخر" الذي يمثل أحد أفراد المجتمع وعلاقته مع جاره "منصور"، هذا "الآخر" الذي أبى أن يغير طباعه إلى الأحسن بل تسوء شيئا فشيئا لدرجة أنه صار لا يرضى الخير لجاره، ولا يحب أن يراه في خير ونعمة، ليكون هو الأحسن منه درجة ورفعة، "الأنا"تستنكر على "الآخر" هذه الصفات التي لا تليق بأي إنسان على وجه هذه الأرض، فلماذا الحقد والحسد؟، لقد ظل الجميع في هذا المجتمع، وصار كل واحد يجري فقط وراء مصالحه ورغباته ومبتغاه ضاربا بكل القوانين الإنسانية عرض الحائط:

« يا شيخُ من تدعوهُم تاهتْ بهم سبل وتقاسمتهم الاتجاهات، واستجابوا إلى مؤذنين آخرين، لكل واحد قبلة وصومعة ». (كراف الخطايا، ص20).

ف"الأنا الساردة" تشير إلى أن الآخرين قد ضلوا عن طريق الجادَّة وطريق الصواب، فصار لكل واحد منهم سبيل خاص به، يمشي عليه ويتبع ما أمر به هواه، فالآخرون تاهوا في دوامة الهوى، فما عادوا يبصرون طريقا خلافها ولا يسمعون إلا إيقاعها، فلا داعي لنداء "الشيخ" أو غيره فلا معنى لهما؟، لأن القلب والروح صارا مليئين بالدنيا وزينتها.

« مرّ الفضوليون بالبيت، وهم لا يشكّون أنهم سوف يسمعونها تبكي وتنوح.. بل إنهم مرّوا ليسْمعوها كيف تبكي وتنوح..». (كراف الخطايا، ص 48).

...وتظل "الأنا الساردة" تروي لنا أخبار "الآخر" في المجتمع، ومدى سذاجته ووقاحته، إذ أنه لا يُغمض له جفن ولا يهنأ له بال إلا برؤية الآخرين يتألمون ويعانون ويتجرعون أمام عينيه مرارة الحياة، وهو يتفرج على معاناتهم غير آسف ولا كاسف.

وهذا جلي في هذه الأسطر، حيث أن "الآخر" الفضولي كما تقول "الأنا" قد جرَّه فضوله إلى التلصص على غيره والتجسس أمام الأبواب والنوافذ، لمعرفة الأخبار التي تشفي غليله وتغذي فضوله.

إن "الآخر" لا يكف عن تصرفاته المقيتة التي لا تليق بأي شخص القيام بها، لكنه مُصرٌّ في غيِّه وضلاله ولا يتوانى عن ارتكاب الأخطاء، فكم كان شوقه كبيرا أن يرى ضعف غيره وانكسارهم، ويفرح بآلامهم، هذا "الآخر" المريض الذي كان يتمنى أن يسمع نواح "أم منصور"، وهي تبكي وترثي ابنها للحالة التي وصل إليها، هذا "الآخر" الجماعي المتمثل في بعض من أفراد المجتمع ذات شخصية غير سوية، وهذه السلوكات الصادرة عنه تثبت مرضه النفسي، لأن الإنسان الطبيعي يحزن لحزن غيره ويتألم لآلامهم، لكن "الآخر" عكس ذلك فلا يروقه أن يرى البسمة في وجوه غيره، وخاصة "منصور"، إذ يريد له شقاء دائما، وهما قائما لا يفارقه، لا هو ولا أحدا من أقاربه، ولقد خاب ظنه لأن شيئا مما أراده كان، لأن "منصور" وأمه على أحسن ما يكون عليه الابن وأمه.

...وتتغير صورة "الأنا" و"الآخر" في الرواية من حال إلى حال، وتظل "الأنا" دائما هي العقل السليم والواعي الذي يريد أن تنقلب الأوضاع للأحسن، فالآخرون هم بمثابة الوهم الذي تخاله حقيقة لِتجده فيما بعد سراب في سراب، لأنهم لا يعرفون شيئا سوى الثرثرة الخالية من أي معنا أو أي هدف، زيادة على ذلك يُعقِّبون على كل تصرف قد تقدم عليه، فيفتُون عليك ويأمرونك بترك هذا وفعل ذاك، وهذا ما تشير إليه "الأنا الساردة" في(الصفحة 54 من الرواية)حيث تقول:

« أمّا الآخرون المنضغطون كالسردين في عُلب "عيب**!**" و"يجوز ولا يجوز"، هؤلاء يستنكرون عليك كل هذا، بل يظنون بك الظنون.. بل ربما سيطلقون فيك ألسنتهم ترتع في عرضك على هواها ».

ف"الآخر" هو رمز للجهل والتخلف، ولذلك ف"الأنا" تطيح من شأنه وقيمته لأنها تعلم جيدا حقيقته وهويته المنغلقة حول ذاته، وموقف "الأنا" من "الآخر" لم يكن موقفا عابرا للأهواء، بقدر ما كان ناتجا عن تفاعلها وتأثرها بتصرفات هذا "الآخر"، وإدراكها لما يجول بخاطره، ولأنها تعرف أيضا حجم ضحالة عقله وصِغَر

تفكيره ومحدودية منطقه، إذ أنه يستنكر على الآخرين أن يفرحوا ويضحكوا ويحيوا حياة سعيدة، وكأنهم ارتكبوا جريمة من الجرائم.

"الآخر" المتخلف برغم جهله في الدين إلا أنه يدعي عكس ذلك، ويطلق أحكاما من عنده حسب ما تتلاءم وهواه، فيحلِّل حسب ما يحب ويحرم ما يريد، ويقول هذا عيب وهذا حرام وغيرها من الأحكام الجزافية الباطلة، المهم "الأنا الساردة" تدري هذه الحقيقة الكامنة في "الآخر"، ولذلك فالعلاقة بينهما علاقة صراع في الأفكار والمبادئ، لأنهما متناقضين مع بعضهما البعض، ولكل واحد منهما قِيما وأخلاقا مختلفة عن قِيم وأخلاق الطرف الآخر، ولهذا فـ"الأنا" تمثل العقل الواعي، في حين يمثل "الآخر" العقل المتخلف، ولهذا نجد "الأنا" تُعلي من شأنها وتقلل من شأن "الآخر" وتعتبر نفسها كيانا مستقلا عنه .

وفي (الصفحة 70 من الرواية)، نجد "الأنا الساردة" تصور لنا مشهدا آخر من المشاهد اليومية المتكررة لدى الآخرين في المجتمع الذي يعيش فيه منصور تقول:

« ذهبوا وفي أعماق كل واحد منهم إحساس كبير بالخزي والفضيحة »

فـ"الذات الراوية" تعرف تحركاتهم وسكناتهم، ظاهرها وخفيها أكثر مما تعرفه كل الشخصيات حتى "منصور"، إذ أنها تدرك جيدا ما بنفوس الآخرين في هذا الموقف أو المشهد بالذات، وهو شعور بالخزي والفضيحة لَمَّا كُشف أمرهم المستور أمام بعضهم البعض، فبالرغم من أن "الأنا" لم تكن حاضرة في تلك المطبة التي أوقعهم فيها بطل الرواية "منصور"، إلا أنها على معرفة تامة بالأحداث بأدق تفاصيلها، كما تعرف كل الشخصيات التي كانت هناك في بيت البطل من "الشيخ" و"عمي صالح"، "الساسي" وغيرهم، فالآخرون المستترون خلف حجاب الفضيلة قد أتوا الليلة للممارسة الرذيلة، فأحب كل واحد منهم أن يحظى بالغنيمة، ويقضي ولو للحظات قليلة مع الفاجرة ليلها، ويأخذ منها ما اشتهت غرائزه وفاضت عليه رغباتها، وأخت "منصور" التي تدعى "خديجة" كانت الفاجرة كما ادعى لهم "منصور" لأجل الإيقاع بهم، وفَضحِ عورتهم في وجه بعضهم البعض.

فـ"الأنا الساردة" عرفت وتعرف الخزي الذي ينخرهم من الداخل وتعي ما أصاب نفوسهم وصدورهم من إحساس كبير بالخجل، وحجم العار الذي يكبر داخلهم، بسبب شهوة عابرة ولذة كاسرة وشهوات محرمة، نُهِي

عنها الإنسان، فـ"الأنا" هنا فردية متمثلة في "السارد" الذي يروي لنا الأحداث، أما "الآخر" فهو جماعي وهم أرباب الشهوات في المجتمع والذين ذهبوا إلى بيت "منصور".

فـ"الأنا" تستنكر على "الآخر" فعلته الشنيعة هذه غير الأخلاقية، والبعيدة تماما عن المبادئ والقيم التي رموها في المزابل، جريا وراء ملذات تافهة ورخيصة، ولقد كان هذا حال المجتمع في أغلب مواقفه، إذا يحكمه الجانب "الآخر" من الشخصية المتمثل في "الهو"، فيجري الإنسان وراء أهوائه ورغباته، ضاربا كل الحواجز عرض الحائط، ودون إعطاء الاعتبار لأي سلطة قد تمنعه من تحقيق مبتغاه، لكن وتبقى دائما كلمة لكن تتغلغل في كل قيل وقال، حيث أن الإنسان بطبعه يحس بأخطائه طال الوقت أم قصر، ويتحرك فيه الجانب الثاني من شخصيته المتمثل في "الأنا الأعلا"، وهو السلطة العليا والضمير الأخلاقي، إذ يستيقظ فجأة ودون سابق إنذار ليؤنب "الأنا" على فعلها "أنا العاصية". وهذا بالضبط ما حدث لـ"الشيخ" في تلك الليلة إذ أنه يمثل في ذاك المجتمع القدوة والمثل الأعلى وحتما سيكون وَقْعُ ضميره أشد:

« راح يعْدو صوب داره، وإنّ حمّى غريبة لتأخذه من كل أقطاره، وتمزّقه تمزيقا.. لعلّها نوبة من النوبات التي يصحو فيها الضمير، ويعنف صاحبه، ويقسو على روح صاحبه ». (كراف الخطايا، ص 71).

فـ"الآخر" حسب ما تراه "الأنا الساردة" قد فاجأته صحوة الضمير هذه، فامتلأت نفسه خيفة ورعبا جراء ما كان على وشك القيام به، أي أن "أناه الأعلا" قد تحرك أخيرا وسَرى في كامل ذاته يَنغزه نغزا، ويُوجعه قهرا فيُشعره بقذارة نفسه وعِظم إثمه، الذي كان مقدما عليه منذ لحظات قليلة فقط، فـ"الآخر" كان على شفا حفرة من الهاوية، لولا تدخل يد الأقدار وفعل مافعلته، عساها ترشده إلى الهدى وطريق الحق، فيتوب عن أخطائه ويستغفر ما تقدم من ذنوبه وما تأخر، خاصة أن أعين الجميع كلها حوله، فهو شيخهم وقدوتهم في كل شيء، ونظراتهم كلها نظرات تقدير وإجلال واحترام وتقدير له، فهو العابد لله ولا يعصيه القانت الذي يحيا إلا ليرضيه.

فيا ويله مما كان ينوي فعله، ويا ويله من عقاب ربه، هل وصل به الحد إلى هذه الدرجة؟ هل وصل ظلال الآخرين وتمردهم هناك في المجتمع إلى هذا الحد؟.

لقد شعر "الشيخ" بخجل عميق ينخر نفسه العاصية الآثمة، وستخزى وانقلب إليها معنفا، لعلَّها لا تعود إلى سابق عهدها!؟.

« –طبقة سياسية منافقة، لا يلزمها عهد ولا تلتزم بوعد، ولا ترقب في علاقاتها إلّا ولا ذمة. أنا لست قاسيا عليهم.. هذه حقيقتهم، وإلا بماذا تفسّر أنت أنهم كانوا يتسللون إلى داره خفية عن بعضهم بعضا، وينفردون به في الأزقة، بل ويدعونه إلى الغذاء أو العشاء ». (كراف الخطايا، ص186).

إن هذه النظرة التي ترى بها "الأنا"الساردة للآخرين لا تختلف عن رؤية "منصور" لهم، الذي يُعدُّ جزءا لا يتجزأ من مجتمعهم وبيئتهم تلك، حيث نجدهما يتفقان في هذه النظرة لـ"الآخر" الجماعي، وهذا ما يثبت صحة ما كان يقوله "منصور" عن الآخرين وعن زيفهم ونفاقهم، فكل ذلك المكر وكل ذلك الرياء، وكل تلك الألاعيب والخدع هي صفات ذميمة وعادات وسلوكات دنيئة، لكنها لصيقة بهم، إذ أنهم يُظهرون للناس عكس ما هو موجود داخل دواتهم التي تخفي ذواتا أخرى.

فالآخرون يَبدون ثعالب بشرية يَتصيدون فريستهم بطرق ملتوية، وجشعة إلى حد كبير، وهذا دليل على رخاوة نفوسهم وأرواحهم، لأن هذه الفئة أو الطبقة السياسية التي تتحدث عنها "الأنا"، لا تعرف سوى كيفية نيل مصالحها وقضاء حاجاتها، مهما كانت الطرق بشعة والأساليب غير مشروعة، فتَخون أقرب الناس إليها وتَطعن أحب الأصدقاء إلى قلبها، وتلدغ بالسم من تظن أنهم أعداؤها، والآخرون لا يدركون مدى خطورة سلوكاتهم على حياتهم وحياة الآخرين، من خلال تفنُّنهم في أداء الأدوار المزيفة وصولا إلى غاياتهم المنشودة.

ونظرة "الأنا" لـ"الآخر" هي نظرة إشفاق وازدراء وسخرية في نفس الوقت، فنظرة الإشفاق ناتجة عن معرفة "الأنا" للحالة التي يعيشها الآخرون، في ظِل الزيف، فهم مساكين حقا لا يحيون حياة طبيعية يغمرها الهناء والأمان، وأما النظرة الثانية فهي بسبب دواتهم المعاقة التي سيطر عليها الهوى، فانساقوا وراء الدنيا وملذاتها، لهذا جعلت "الأنا" مرتبة "الآخر" في أدنى المراتب وهي مرتبة المنافقين الذين ليس لهم ملة ولا دين، والذي لا يملك هاتين فقد ظل عن سواء السبيل، إذ أنساهم الجري وراء الكراسي والسلطة معاني الأخلاق، بل وقد أعدم فيهم كل فضيلة وقرّبهم إلى كل رذيلة.

فالآخرون يعيشون حالة صراع مع دواتهم أولا ومع غيرهم ثانيا، فصاروا يخشون حتى ظِلهم،ولقد كانت هذه الرؤية التي أعطتها لنا "الأنا الساردة" هي بمثابة رؤية حكيم، لأنها خَبَرت أعمالهم نتيجة تفاعلها معهم، وهي صادقة في كل ما تقوله، لأن كل سلوكاتهم التي كانوا يقومون بها قد انعكست سلبا عليهم، وصاروا يشكون في

كل شيء يدور حولهم وحتى في أنفسهم، ولذلك فبمجرد ما سمعوا الشريط الذي سجله "منصور" حتى انكبت فيهم الوساوس وأحاطت بهم الهواجس، وأصبح كل واحد منهم يحاول أن ينفرد بـ"منصور" ومعرفة حقيقته منه، ومعرفة الموقع الذي يحتله من الشريط، وأي حيوان قد يكون هو؟.

وأي صوت من الأصوات قد يكون إشارة إليه هو؟.

فالآخرون قد أعمتهم ألاعيبهم وحيلهم التي مارسوها سابقا على الناس البسطاء، وكانوا يخدعونهم نتيجة لجهلهم وسذاجتهم، لكن الآن قد حان دورهم وانقلبت عليهم خدعهم، حتى أصبحوا لا يعرفون حقيقة نفوسهم، أي أنهم شتتوا هويتهم وأضاعوا دواتهم، وتاهوا بعد أن أتاهوا من قبل فئات كثيرة من الناس، ولذلك ترى "الأنا الساردة" أن السحر انقلب على الساحر، والعمل السيئ يُهلك صاحبه قبل أن يُهلك غيره، والآخرون ليسوا فقط هذه الطبقة السياسية في المجتمع، وإنما هم تقريبا أفراد المجتمع جميعا، لأن الكل في تلك القرية الصغيرة يحترف الغدر والمكر والخديعة، ونهايتهم ستكون شنيعة بالتأكيد، إذ تقول "الأنا الساردة":

« وما دقت الساعة الثامنة، حتى كانت القرية كلها تهتز تحت وقع الصدمة والفضيحة، والناس يلهثون وراء المناشير ليعرفوا من أساء إليهم أو إلى أهلهم وهم لا يعلمون..». (كراف الخطايا،ص 276).

لقد جاء اليوم الذي يوعدون، لقد ظهر الحق وزهق الباطل، فمن كان بريئا مع نفسه، كان بريئا عفيفا وطاهرا شريفا مع الناس، ومن كان خبيثا مع نفسه، صار خبيثا لئيما مع الناس أيضا، وأخذ الجميع يبحثون عن أصولهم، عن حقيقتهم، عن هويتهم فلا يجدونها، إذ كلما نزعوا قناعا يجدوا بعده قناعا آخر، ثم تبتلعك فوضى الأقنعة، ولا وجود لوجه حقيقي بين هذه الوجوه المزيفة.

إنها الفتنة الكبرى التي أشعلها الآخرون بسوء نياتهم وسوء أعمالهم، إنه يوم كالطامة، فالجمع مدهوش مفزوع، الكل أُصيب بالصاعقة مما كان يحدث سرا وفي الظلام الحالك، واختلط الحابل بالنابل، ووقعت الواقعة، فهرب من استطاع الهرب، وانتحر من جَبُنَ على المواجهة، وغيرها من الفضائح التي يُندى لها الجبين، ولكن "الآخرون" كما ترى "الأنا الساردة" استيقظوا أخيرا من سباتهم العميق وتحققت أماني البطل "منصور" وصفى جو القرية تلك وساد الطهر، حيث تقول "الأنا":

« فقد اختفت من القرية الغيبة والنميمة، والحسد والنفاق، وصفا الجو بالطهر والبراءة، وتبخرت سحب الخداع والغش، لتتنفس من تحت ذلك كله البراءة، ويضيء الطهر أسارير الوجوه، ويمتدّ الصفاء في فضاءات القلوب ».(كراف الخطايا،ص 284).

.للأسف الشديد كان ذلك بعد أن زُهقت أرواح، ولُوِّثت نفوس، وذاق البطل آلام ذلك كله، وعانى الأمَرَّين، فعاش خريف القرية الحزين ولم يحظى بإشراقه الربيع عليها، لأنه بعد الحادثة اختفى تماما عن الأنظار.

خلاصة:

إن الإنسان بطبعه غريب وجاهل ووحيد، مريض وأناني، ضعيف خطَّاء وجاحد، حتى ولو اعتقد أو تظاهر بعكس ذلك، وبين هذه الحالة الشاذة والمأساوية يظل يتخبط خَبْط عشواء، وفي أغلب الأحيان يكون مآله السقوط الحر، و"منصور" إنسان وله من الطباع والخصال التي ذكرنا، مثله مثل باقي البشر جميعا، فمهما يكن حبه للخير شديد، ومهما تكن إرادته في التجديد أشد إلا أنه يملك داخله طباعا أخرى سيئة، فيحقد على الناس ويخطئ في حقهم ويظلمهم ويقسو عليهم أحيانا.

فشخصية "منصور" حسب ما هو ملاحظ في الرواية شخصية تجمع بين كل المتناقضات في ذات واحدة هي أناه، إذ يكون أحيانا "الأنا" الطيب الرءوف المشفق الحنون ثم يصير فجأة "أنا" أخرى أو يكون هو بذاته "آخر" مع نفسه في الوقت نفسه فلا ينسجم معها ويقف ضدها وضد الآخرين وهكذا، فعدم انسجامه مع نفسه أدى به إلى عدم الانسجام مع المجتمع الذي يعيش فيه وهذا الأخير أدى به إلى الضياع الذي لا بد منه في النهاية إذ لم يعد يعرف نفسه وفقد هويته لأنه لم يستطع الحفاظ على ذاته وصون هويته من الذوبان في هويات الآخرين.

خاتمة

خاتمة:

وصفوة القول من هذا البحث تتمثل في أن النص الأدبي ليس كينونة مجردة عن الحياة، بقدر ما هو صورة عنه، والنص الروائي خصوصا هو خطاب يحمل في طياته قِيَّما جمالية ومعرفية، ومهما كانت طبيعة موضوع الرواية فإنها تتحدث عن قصد أو عن غير قصد عن قضية جوهرية هي قضية الهوية .

ولقد توصل البحث في النهاية من خلال دراسته لرواية (كراف الخطايا) إلى نقاط أساسية نجملها في ما يلي :

- أن الهوية الحقيقية لـ"لأنا" لا يمكن أن تتشكل أو تتضح بمعزل عن "الآخر" والوعي به،بل إن التفاعل الحاصل بينهما هو الذي يكشف عن هوية كل منهما، لأن "الآخر" مرآة عاكسة لـ"الأنا" والعكس.
- "الآخر" هو مجال تحقق "الأنا" واختبار إمكاناتها النفسية والجسدية والعقلية .
- "الأنا" قد تكون "أنا" فردية أو جماعية في الوقت نفسه، وقد يكون "الآخر" كذلك.
- إذا لم تكن شخصية "الأنا" قوية فهي حتما ستنصهر داخل هويات الآخرين .
- "الأنا" تمتاز بطابع الانغلاق والتكتم والانعزال عن العالم الخارجي في معظم الحالات .
- جعلت "الأنا" عالمها الخاص مخبرا لتحليل مختلف الظواهر الاجتماعية، التي ترصُدها من العالم الخارجي .
- نظرة "الأنا" لنفسها تتأرجح بين الإيجاب والسلب .
- الأنا تمثل العقل الواعي والمثقف في المجتمع.

-طبيعة العلاقة بين "الأنا" ولـ"الآخر" تمتاز بالتقلب المستمر حسب المواقف التي يتعرض لها كلا الطرفان فنجد علاقة حب وانجذاب، عِداء وتناقض، نفي وإثبات وغيرها،

وفي الأخير تبقى الهوية هي مثار جدل الكتاب والأدباء والمفكرين والفلاسفة عبر الأزمان والأمكنة.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع.

*** القرآن الكريم (رواية حفص).**

أ – المصادر:

1 – عبد الله عيسى لحيلح-كراف الخطايا-الجزء 1، ط1، أوت 2002.

ب– المراجع:

1- أحسن بوبا زين، سيكولوجية الطفل والمراهق، دار المعرفة، باب الوادي، الجزائر،دط، 2009.

2- أحمد الظاهر قحطان،مفهوم الذات بين النظرية والتطبيق،دار وائل للنشر والتوزيع،عمان،ط2،2010.

3- أحمد بناسي، دراسات في الإسلام واللغة العربية، منشورات المجلس الإسلامي الأعلى، الجزائر، دط، 2004.

4- أحمد سعد جلال، الاختبارات والمقاييس النفسية، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية، القاهرة، مصر، ط1، 2008.

5- أحمد شوقي، الشوقيات ، قدم له وضبطه وشرحه ووضع فهارسه صلاح الدين الهواري،دار ومكتبة الهلال، ج1و2،،ط1 ،2008،ص 286.

6- إخلاص فخري عمارة، الشعر الجاهلي بين القبلية والذاتية، مكتبة الآداب، القاهرة، ط2، 2001.

7- بشرى موسى صالح، بويطيقا الثقافة نحو نظرية شعرية في النقد الثقافي، إصدارات مشروع بغداد عاصمة الثقافة العربية، ط1، 2012.

8- جان فرانسوا ماركيه، مرايا الهوية،الأدب المسكون بالفلسفة، ت:كميل داغر، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط1، 2005.

9- جلال شمس الدين، علم اللغة النفسي، مناهجه ونظرياته وقضاياه، المناهج والنظريات، مؤسسة الثقافة الجامعية للطبع والنشر والتوزيع، ج1، د ط، د ت.

10- حاتم الو رفلي، بول ريكور...الهوية والسرد، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، د ط، 2009.

11- حسين مجيد العبيدي، من الآخر ...إلى الذات، دراسات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة والفكر العربي المعاصر، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2008.

12- خليل عبد الرحمن المعايطة، علم النفس الاجتماعي، دار الفكر ناشرون وموزعون، عمان، ط3، 2010.

13- خير الله عصار، مقدمة لعلم النفس الأدبي، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عنابة، الجزائر، ط1، 2008.

14- دافيد لوبروتون، أنثروبولوجيا الجسد والحداثة،ت:محمد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،ط2،1997.

15- رث والاس ألسون وولف- النظرية المعاصرة في علم الاجتماع- تمدد أفق النظرية الكلاسيكية، ترجمة محمد عبد الكريم الحوراني- دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، جامعة اليرموك- الأردن، ط1، 2011-2012.

16- رشيد بعلي حفناوي ، مسارات النقد ومدارات ما بعد الحداثة في ترويض النص وتقويض الخطاب، دروب للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2011.

17- رمضان الصباغ، فلسفة الفن عند سارتر وتأثير الماركسية عليها،دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط2،2004.

18- زيدان جرجي، تاريخ آداب اللغة العربية، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ج1، دط، 1983.

19- سعاد حرب، الأنا والآخر والجماعة، دراسة في فلسفة سارتر ومسرحه، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1994.

20- صلاح محمد عبد الحميد، فن التعامل مع الآخرين، هبة النيل العربية للنشر والتوزيع، دار الكتب المصرية، دط، 2001.

21- الطاهر لبيب، الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت،ط1،1999.

22- عدنان يوسف العتوم وآخرون، التواصل الاجتماعي من منظور نفسي واجتماعي وثقافي، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، دط، 2011.

23- علي سلمان حسين العبادي، هوية الأنا والتمرد النفسي لدى المراهقين، علم نفس الطفولة والمراهقة، المكتب الجامعي الحديث، د ط، 2013.

24- عيسى الشماس، مدخل إلى علم الإنسان- الأنتربولوجيا، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، دط، 2004.

25- ماجدة حمود،صورة الآخر في التراث العربي، الدار العربية للعلوم ناشرون،منشورات الاختلاف،ط1،2010.

26- محمد إبراهيم عيد، الهوية والقلق والإبداع، دار القاهرة، القاهرة، ط1، 2002.

27- محمد عزام،شعرية الخطاب السردي،من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق،دط،2005.

28- محمد عودة الريماوي، علم نفس النمو- الطفولة والمراهقة، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، الأردن، ط1، 2003.

29- محمد فتحي فرج الزليتني، أساليب التنشئة الاجتماعية الأسرية ودوافع الانجاز الدراسية، دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة،دط،2008 .

30- محمود السيد أبو النيل، علم النفس الاجتماعي،دراسات عربية وعالمية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر،بيروت، ج1و2، دط، دت.

31- مروان أبو حويج وعصام الصفدي، المدخل إلى الصحة النفسية، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، الأردن، ط1، 2009.

32- مصطفى خلف عبد الجواد، قراءات معاصرة في نظرية علم الاجتماع، مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، القاهرة، د ط، د ت.

33- مصطفى صالح الأزرق، علم النفس الاجتماعي، اتجاهات نظرية ومجالات تطبيقه، دار الفكر العربي، مدينة نصر، القاهرة، ط1، 2013.

34- المنجد في اللغة العربية المعاصرة، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط2، 2000.

35- ميجان الرويلى وسعد البازغي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط3،2002.

36- نهال ميهدات، الآخر في الرواية النسوية العربية في خطاب المرأة والجسد والثقافة،دار الكتاب العالمي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن،ط1،2008.

37– يوسف عطا الطريفي، شعراء العرب عصر صدر الإسلام، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2007.

*** الدواوين:**

1- ديوان عمرو بن كلثوم، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1996.

2- شرح ديوان عنترة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط،1995.

3- ديوان محمود درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، دار الحرية للطباعة والنشر، بغداد، مج1و2، ط2، 2000.

4- يوسف وغليسي، تغريبة جعفر الطيار، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، قسنطينة، ط2، 2003.

*** الأطروحات والرسائل العلمية**

1- عبد الله بوقرن، الآخر في جدلية التاريخ عند هيجل، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه العلوم في الفلسفة، قسم العلوم الاجتماعية والإنسانية، إسماعيل زروخي، جامعة منتوري،قسنطينة،2006-2007.

2- عبد العزيز حنان، نمط التفكير وعلاقته بتقدير الذات،رسالة مكملة لنيل شهادة ماجستير،تخصص الارشاد النفسي والتنمية البشرية، قسم العلوم الاجتماعية، شعبة علم النفس، بشلاغم يحي، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، 2011-2012.

3- مي عودة أحمد ياسين،الآخر في الشعر الجاهلي، رسالة مكملة لنيل شهادة ماجستير في اللغة العربية بكلية الدراسات العليا، إحسان الديك،جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين،2006.

*** الملتقيات:**

1- الملتقى الدولي حول السرديات، أسئلة الهوية في الخطاب السردي، المركز الجامعي بشار.

*** المواقع:**

1- محمد الشبة، موقع محمد الشبة لقضايا الدرس الفلسفي، الوعي والإدراك الحسي، 10:00، philochebba .com2015/03/03.

العنوان	الصفحة

مقدمة..... أ–ب

الفصل الأول: في مفهوم الأنا والآخر

تمهيد..... 02

أولا: في مفهوم الأنا..... 03

مفاهيم عامة حول الأنا..... 03

أ– الأنا في الفلسفة..... 09

ب–الأنا في علم النفس..... 11

ت–الأنا في علم الاجتماع..... 12

ث–الأنا في علم النفس الاجتماعي..... 17

ثانيا: في مفهوم الآخر..... 22

ثالثا: طبيعة العلاقة بين الأنا والآخر..... 26

خلاصة..... 34

الفصل الثاني: الأنا والآخر في رواية كراف الخطايا

تمهيد..... 36

أولا: الأنا "الساردة"/ الآخر "منصور"..... 37

ثانيا: الأنا "منصور"/ الآخر "المجتمع"..... 50

ثالثا: الأنا "الساردة"/ الآخر "المجتمع"..... 71

خلاصة..... 80

خاتمة..... 82

قائمة المصادر والمراجع..... 84

الفهرس..... 89